دار العين للنشر



ضغط الكتابة وسكرها

كتابات في الثقافة والحياة

أمير تاج السر

ضغط الكتابة وسكرها

كتابات في الثقافة والحياة

أمير تاج السر

دار العين للنشر

ضغط الكتابة وسكرها
كتابات في الثقافة والحياة

أمير تاج السر

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م



دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: بسمة صلاح

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧٨٩٢/ ٢٠١٣
I.S.B.N 978-977-490-250-5



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

تاج السر، أمير.

ضغط الكتابة وسكرها: كتابات في الثقافة والحياة/ أمير تاج السر.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٢٥٠ ٥

١- المقالات العربية.

أ- العنوان

٨١٤

رقم الإيداع / ١٧٨٩٢ / ٢٠١٣

المحتويات

أفكار للبيع

كانت رسالة غريبة، تلك التي وصلتني على بريدي الإليكتروني، من قارئ نهم، ومتابع دقيق للشأن الإبداعي، وقرأ لي أعمالا ربما أكون أنا نفسي لا أتذكرها، كما وصف نفسه. كان القارئ المتابع، يعرض علي أفكارا للبيع، بمعنى أن أدفع له مبالغ من المال نظير تزويدي بأفكار جديدة، أصنع منها روايات عظيمة، فهو يملك حصيلة كبيرة من تلك الأفكار، ولا يستطيع كتابتها لأنه لا يملك موهبة الكتابة، وذكر أنني أول شخص يعرض عليه هذا العرض لأنني روائي جيد، ولكن سيسعى إلى آخرين إذا ما رفضت عرضه.

رسالة غريبة جدا، ولكن دائما ما توجد غرابة في سكة الكتابة، وإلا ما كانت ثمة كتابة ناجحة، وقد مررت بكثير من التجارب الغريبة في حياتي

حتى حينما كنت أكتب الشعر العاطفي، في مدينة بورسودان الساحلية، ويصادفني مجانين يدعون إعجابهم بأشعاري التي يرددون بعضها أمامي، وأتكبد لقاء ذلك الإعجاب كثيرا من الخسائر، لن أنسى إسماعيل الذي أركبني مرة عربة للأجرة على حسابه وأنا طالب مفلس أنتظر باصا ليقلني إلى بيتي، ثم فر في منتصف الطريق تاركا أجرة السائق على حسابي ولا أملك حسابا. لن أنس الماحي، مدرس الابتدائي الذي اصطادني في إحدى عربات الدرجة الرابعة في قطار مزدحم يشق طريقه بين مدينة بورتسودان والخرطوم، صارخا بأعلى صوته: شاعر عظيم في الدرجة الرابعة؟، حقا تموت الأسد في الغابات جوعا. ثم قادني إلى حيث يركب في الدرجة الأولى وأكتشف بعد ذلك أنه يركب بلا تذكرة ولا نقود، ولا أكل ولا شرب، وأقوم بدفع التكاليف.

المهم أنني رددت على صاحب الأفكار، طلبت منه نموذجا من أفكاره التي ستصنع رواية عظيمة أنا بحاجة إليها، حتى أوافق أو أرفض، وكان الرد في رسالته التالية أن عرض علي فكرة عن رواية تدور أحداثها على سطح القمر، بطلها رائد فضاء في سفينة أمريكية، عثر على قبيلة بدائية تعيش هناك وتتمتع بصحة ولياقة عاليتين وأحب إحدى فتياتها حبا جارفا، وانفصل عن مركبته ليتعلم لغة القبيلة، ويعيش هناك. أليست فكرة جديرة بأن تدفع من أجلها؟.. إن لم تعجبك، لدي غيرها ولن أرسلها لك حتى تدفع.

في الواقع إن الكتابة ليست أمرا يمكن شراؤه، والأفكار مهما كانت

غريبة أو غير مألوفة، ليس بالضرورة تصنع أدبا عظيما، وما يلتقطه الكاتب بنفسه من الطرق والحياة اليومية، يبدو أكثر انسجاما مع كتابته من تلك الأفكار التي يزوده بها آخرون.

فكرة صاحب دكان الأفكار هذه ربما تصلح فيلما سينمائيا ممتلئا بالبهرجة، وربما رواية يكتبها أمريكي مغرم بالتقاليع، لكنها ليست روايتي.

لن أشتر من دكان الأفكار شيئا ولا أنصح أحدا بالشراء.

أسماء روائية

حين كنت أكتب روايتي أرض السودان - الحلو والمر، كنت أبحث عن اسم نسائي إسباني لإحدى الشخصيات العابرة في النص. هذه ليست معضلة ويمكن الحصول على أي شيء من داخل الإنترنت بسهولة، لكنني بالرغم من ذلك لم أستسغ الأسماء التي جاءتني من البحث، ثم لتحل المشكلة تلقائيا حين راسلتني إسبانية اسمها هيلينا دا سيلفا على الفيس بوك، طالبة ضمها إلى قائمة الأصدقاء، وكان اسمها إيقاعيا وسلسا، وجاء في الوقت المناسب، ومن ثم استخدمته في الرواية بعد أن استأذنتها، وفرحت بشدة، ولا أعرف لماذا يفرح الناس حين تستخدم أسماؤهم في الكتابة، حتى لو كانت الشخصية التي تحمل الاسم ليست سوية، أو لامعة.

ما انطبق على هيلينا دا سيلفا، انطبق أيضا على فلابيل عسكر، هندي

يعمل معنا، وأردت اسمه لشخصية رجل معمر، يعيش في أرض السودان منذ مئة وخمسين عاما. شرحت الأمر للرجل الذي لم يكن أصلا يعرف موضوع كتابتي، ولا تخيلني أزاول نشاطا آخر غير عملي الذي يعرفه، فوجئت به يسألني أسئلة كثيرة، ويؤكد لي بأنه لا يدخن ولا يتعاطى المنكرات، ولم يغازل امرأة في حياته، وتزوج بطقوس الهنود التقليدية، ويريد ذلك الهندي المعمر الذي أكتبه أن يكون مثله، ثم طلب مني أخيرا أن أهديه نسخة من الكتاب حين يصدر، وأضع له خطا في كل سطر يحمل اسمه، ولو ترجم ذلك الكتاب للغة الهندية، سيكون سعيدا بقراءته. كان سعيدا جدا، وجاءني لأول مرة بكوب رائع من النسكافيه، من دون أن أطلب منه ذلك.

وأذكر أنني حين كنت أكتب روايتي "مهر الصياح"، استوقفني اسم أحد المجندين في كتيبة الظهوريين التي تختص بحماية السلطان رغد الرشيد. كنت أبحث عن اسم قوي يحمله رجل قوي، واستغرق الأمر أياما من دون أن أعثر على اسم مناسب، ثم جاء رجل أسيوي ليعالج ابنه البالغ من العمر ثماني سنوات في ذلك الحين. كان اسمه "عجيب تمبولي"، وكان اسما مطابقا لشخصية الظهوري بشكل لا يصدق، ولو كان ذلك المجند حقيقيا لما كان اسمه غير "عجيب تمبولي". استلفت الاسم على الفور، وأخبرت الرجل، الذي هنأ ابنه بقبلة كبيرة، وقد كبر عجيب الهندي الآن ويدرس في الجامعة، ويزورني دائما ليسأل عن النسخة الإنجليزية لمهر الصياح، إن كانت قد صدرت أم لا؟، إلى أن استلم نسخته أخيرا موقعة مني.

لكن وبرغم حرصي الشديد على استئذان كل من يروقني اسمه، تظل المسألة شائكة في بعض الأحيان، فسيدة بنغالية مثل شيخة عبد الكلام هارون الرشيد، التي ورد اسمها في رواية زحف النمل، لم يكن ثمة طريقة لإخبارها. كانت في الثمانين، وشبه صماء، والذين يأتون برفقتها، لا يجيدون أي لغة حوار خارج نطاق الشكوى المرضية، وهكذا عبر اسمها إلى النص بلا سؤال ولا جواب.

وهكذا أحس بالامتنان لمهنة تقربني من الجمهور بصفة مستمرة ولا تجعلني أحتار كثيرا وأنا أسمي الشخوص.

اختيار العناوين

من الأشياء المهمة التي تؤرق المبدعين، سوى أن كانوا كتابا أو شعراء، مسألة الاسم الذي يجب أن يخرج به العمل إلى النشر. فأنا أعتقد أن اسم النص، هو مفتاح الدخول إليه، وأحد جوانب الترويج له، الاسم الجيد المناسب، يشد القراء بسهولة، ويدفعهم لاقتناء الكتاب، بينما الاسم الغريب جدا، أو المألوف جدا، حتى لو كان لنص جيد، ربما يساهم في بوار الكتاب، وقد اقتنيت كتبا كثيرة لا أعرف عنها شيئا، لمجرد أن الاسم أعجبني، وأحسست أن وراءه عملا فاتنا، ولكن ليس في كل مرة يصدق الحدس.

أيضا في رأيي إن الاسم بجانب جاذبيته، من المفترض أن يحمل دلالة ما، أو يشكل مفتاحا يدور في قفل النص ويفتحه، وليس مجرد اسم رنان

بلا معنى، حتى لو ساهم في ترويج الكتاب، لأن القارئ الذكي، لن يكف عن التساؤل بعد أن يقرأ النص ويبحث عن رابط له بالاسم ولا يجده، وربما يسعى للبحث عن الكاتب وسؤاله، وغالبا ما يحس بأنه انخدع حين اقتنى كتابا، لا صلة بين اسمه ومادته.

أيضا هناك كتاب يتعمدون اختيار أسماء مثيرة، أو أسماء تدخل في خلخلة الثوابت المستقرة في الأذهان، مثل الثوابت الدينية والاجتماعية والعرفية، بغرض جذب أكبر عدد من القراء، وحين تقرأ الكتاب، تكتشف أنه مادة مختلفة تماما عن عنوانها الصادم، ولا توجد أي خلخلة في النص المقروء، فقط، مجرد عنوان.

لكن كيف يولد اسم النص لدى الكاتب؟

أعتقد أن لكل كاتب طريقته في تسمية نصه، هناك من يكتبون العمل حتى النهاية، ويراجعونه، ثم يمكثون زمانا، باحثين له عن اسم، هناك من يغيرون الاسم عدة مرات، حتى يتوصلوا إلى اسم يرضيهم، ثم يطلقون الكتاب، وهناك من يكتبون الاسم قبل البداية في الكتابة، ويظلون أوفياء له حتى النهاية، من دون أي نية في التغيير، وفي تجربتي الخاصة، فإنني لا أبحث عن اسم أبدا، ولكن أجد الاسم يأتي وحده، ويمكن أن يأتي في أي وقت، في بداية الكتابة، أو منتصفها أو نهايتها، و لم يحدث أن قمت بتغيير اسم لعمل ما، إلا مرة واحدة، في رواية زحف النمل التي كانت تحمل اسما آخر، وتنبهت إلى أنه لا يصلح، في الوقت المناسب.

من الأسماء العظيمة التي، كانت بالفعل مفتاحا لنصها، وقوية في

الحفاظ على إيقاعه، مئة عام من العزلة، الرواية الأشهر لماركيز، ومديح زوجة الأب لماريو يوسا، والوله التركي للأسباني أنطونيو غالا، كل واحد من هذه الأسماء، كان رائعا ومطابقا بشدة لمضمون الكتابة. ومن الأسماء التي ظهرت في إحدى قوائم جائزة البوكر العربية، أعجبني اسم: تحت سماء كوبنهاجن، لروائية لم أسمع عنها من قبل، وقررت أن أبدأ بروايتها تلك السنة، آملا أن تكون ثمة مغامرة ممتعة تحت سماء كوبنهاجن. وكانت الرواية جميلة بالفعل وتحمل اسما جاذبا ومطابقا.

الرواية والوجوه

في أحد المنتديات الثقافية التي تنتشر على فضاء الإنترنت وتملك عالمها الخاص وقراءها ومبدعيها البعيدين تماما عن الكتابة الورقية، تحدث أحدهم عن رواية صدرت حديثا لكاتب عربي وأعجبته، ولما سألته إحدى المتداخلات عن تلك الرواية، وهل تستحق أن تدفع فيها ذلك السعر الذي تعرض به في المكتبات ومواقع تسويق الكتب على الإنترنت؟ رد بأنها تشبه (سعاد ماسي).

لم أكن أعرف من هي سعاد ماسي، لكني خمنت بأنها ربما تكون ممثلة حديثة الظهور لم تصل إلى أسماعنا بعد، أو مغنية من أولئك اللائي يظهرن كل يوم بلا صوت ولا طعم، ومعتمدات على قنوات فضائية بلا لون أو طعم أيضا، ويختفين بعد ذلك من دون أن يتركن أثرا يتم اقتفاؤه، حين

نؤرخ للغناء العربي، وعن بصمات الذين ملأوه إبداعا.

كان (جوجل) الباحث العظيم حاضرا، ومنذ ظهر جوجل في حياة الناس لم تعد الأمور صعبة، ولا ثمة حاجة للبحث المضني في المكتبات العامة والصحف القديمة والمجلات، للعثور على ما نبحث عنه، ويمكن عن طريقه العثور حتى على حفرة صغيرة في شارع منسي وفي بلد لا يعرفه أحد. وبضغطة الزر المعتادة على ذلك الباحث الرهيب، ظهرت سعاد ماسي التي شبه القارئ بها رواية أعجبته، وكانت مغنية من الجزائر، مليحة تقاطيع الوجه، وتتشرف تلك الرواية بأنها شبهت بها.

لا أنكر أن ذلك النهج من التوصيف أعجبني بشدة، وجدته اختصارا شفافا لعدة أوراق ربما يكتبها ناقد أو صحافي متمرس، ليبدي إعجابه بتلك الرواية، وربما لا يقرأها أحد بعد ذلك، ترويجا يربط الشائع بغير الشائع، فالمغنيات ونجمات السينما بالطبع أكثر شهرة من الروايات، ويتذوقهن الناس أكثر مما يتذوقون الرواية، وما دامت رواية تشبه إحداهن فقد تشد عشاق تلك النجمة ليقرأوا الرواية ويبحثوا عن وجه الشبه.

بالرجوع إلى ذلك المنتدى الثقافي، وجدت أن الرواية قد تم شراؤها بالفعل، بواسطة تلك القارئة التي سألت عنها، واستكثرت سعرها الغالي، وهي تراها على واجهة إحدى المكتبات، وبواسطة آخرين أيضا أعجبهم الوصف أو شدهم فانساقوا وراءه وقرأوا تلك الرواية، وأسهبوا في الإشادة بها وهم في الواقع يشيدون بنجمتهم المغنية.

نحن ككتاب نحتاج إلى تلك الصرعات الجديدة بلا شك، نحتاج إلى

من يلصق أعمالنا بنجمة سينمائية أو مغنية فارهة، حتى تشق طريقها إلى القراءة، وفي الأيام المقبلة سأعمق من ثقافتي الغنائية ـ أقصد في الوجوه التي تغني ـ وأربطها بكتب أعجبتني لعلها تجد قارئها بسهولة.

الغابة السرية لليلى صلاح- رواية لن يكتبها الرجال

بالرغم من ما اعتقدته دائما بأنه لا يوجد أدب ذكوري، وآخر أنثوي، وإنما ينتمي الاثنان لجنس الأدب، باعتبارهما تدفق إنساني بحت، إلا أن رواية الغابة السرية للزميلة ليلى صلاح تعيد إلى ذهني ذلك الجدل القديم، وهل حقا يوجد أدب تكتبه المرأة، ولا يمكن أن نكتبه نحن الرجال؟.. حالات شفافية وفوضى مشاعر، لا نحسها نحن وبالتالي لا يمكن أن نرسمها على الورق مهما تقدم بنا العمر، وادعينا معرفة المستور، والمخبأ عمدا عن مخيلاتنا؟

أعتقد أنني أمسكت بخيط ما، وبما أنني كتبت لسنوات طويلة، وكتبت عن شخصيات نسائية لها نجاحاتها وإخفاقاتها، ودخلت حتى

غرف الولادة، وطقوس الختان، وترقيص العرائس في أمسيات الجرتق، ووصفت طقوس البلاد التي كانت المرأة محورها كلها، إلا أن ثمة نواقص عديدة ما كانت لتكتمل، لولا دخولي هذه الغابة السرية، بكل أشجار مشاعرها المتشابكة، وتوحش زينتها، ونزق شخوصها الغالبين أو المغلوبين على أمرهم، الشخوص الضواري، والشخوص الذين من المفترض أن ينأوا بحيواتهم عن الضواري.

أول ما تطالعني به الغابة السرية عند مدخلها، ويستمر ذلك الأول ليصبح ثانيا وثالثا وأخيرا، هو عدم الاطمئنان للماء حين يوضع في الغربال، بحسب المثل المصري المعروف. فدرية الحاج، التي تحب زوجها أمير، وتعتبره أمانا لها في الغربة، وأنجبت منه بنتيها، هو في الحقيقة ماء في غربال، وزوج مايا مربية بيتها وكاتمة أسرارها الخاصة، ومرشدتها ساعة الأزمات (وهو أمر غير معتاد بين سيدة بيت وخادمة في الواقع)، هو أيضا غربال، ولكن بطريقة الأسيويين أو الأجانب التي لا يكون فيها الغربال مستورا، ولكن يتسرب في العلن. نقد الله رجل الأعمال الوسيم، المسافر دائما، يعود لا ليسترخي في أحضان زوجة وحيدة وشبه مهجورة، بلا أطفال يعوضونها الضجر، ولكن يذهب إلى أخريات، إلى خادمات، وتستخدم الكاتبة لفظ مربيات، ربما لتبعد عنها ما تحمله كلمة خادمات من معاني ليست جميلة في الغالب، وليخترع نقد الله هذا بسلوكه، قصة لم تكن ضرورية في حياة الزوجة مريا عدلان مع مختار الهادئ الرزين، الذي يزن كل عبارة ينطقها، ولكنها خاضتها بكل مشاعرها، العاطفية أو الجسدية، باعتبارها ضرورية للغاية، ثم وضعت نهايتها بيدها، وفرت

إلى بلاد الصقيع أولا، ثم انتهت مدرسة لمحو الأمية في قريتها المنارة، في إشارة العودة للجذور التي تراود الكثيرين منا، ولا يطبقها عمليا إلا من ضغطته المأساة، أو لون له الحنين دروبا لن تكون أبدا بنفس الألوان إذا ما خاضها بقدميه. ولنكتشف من تلك الأوراق السرية المخبأة، وقرأتها لنا درية المخدوعة أيضا، إن المرأة تحت ظرف ما، يمكن أن ينطبق عليها نفس المثل الذي يضع الرجال دون سواهم في غربال عدم الأمان.

النص، نص الغابة السرية، شخصيا تعاملت معه كرواية أولى، فيه شبق الكتابة، وشبق البوح، ومحاولة إيجاد تبرير لكل سطر فيه، وأقول إن الكاتبة نجحت إلى حد ما، في جعل ذلك النص الأول، فاتحة خير يمكن أن تجر وراءها نصوصا أخرى شديدة الغنى.. فوجئت باللغة المكثفة الدالة في كثير من الفصول والمواقف، وتكنيك تعدد الأصوات، كل يروي ما يخصه من النص، وثمة عبارات تقترب من الشعر، توجد في الكثير من فقراته، لقد روت مايا وهي الصديقة لمقربة من درية، ما شدها إلى زوج الصديقة، وهي متزوجة من رسام هادئ ومنزو، ووصف بالبرود في تعامله مع جموحها الشخصي، وصفت المربية ما جعلها تترك بلدها وتتشتت في بلاد الخليج بحثا عن الرزق، وبعيدا عن غزوات زوجها المخادع، وشخصيا كنت أتوقع أن يكون لتلك الخادمة أو المربية دورا أكبر في الرواية، لأنها لم تكتب في وظيفتها فقط، وإنما أضيفت لأعبائها في الخدمة وتربية الفتاتين، أعباء كتم الأسرار، وهذا يجعلها مؤهلة لتبوح بأسرار أكثر، وتؤدي دورها الأخير، أيضا كنت أتوقع ما دام هناك تبادل للأدوار في الحكي، أن تسمح الكاتبة للزوج المخادع أمير، أن يحكي سبب خيانته من منظوره هو، لا

أريد أن أقول بأن درية، ومعها مريا عدلان، سرقتا ذلك الدفاع المستميت الذي كان يدافع به الزوج عن نفسه، ولكن هذا ما حدث.

القراءة للنص سلسة ومشوقة، والقارئ لا شك سيركض مع الراوية درية وهي تحزم متاعها وتعود للخرطوم في رحلة تجميع الذات واتخاذ القرار، وسيستغرب مثلي من أنها لجأت للحضن الدافئ، بيت والدتها، لكنها لم تستفد من ذلك الحضن كثيرا، هي انشغلت بدخول الغابة السرية التي تركتها الصديقة مريا عدلان ذات الدم المخلوط بدم الزاندي الجنوبي، ولم تستغل أحضان أمها أو تفكر في وضعها المعلق كثيرا، وهناك زوج يلاحقها بالهاتف، ومن المحتمل جدا أن يتوب ويسعى لطلب مغفرتها، وفتاتين صغيرتين لا تعرفان عن رحلة استعادة الذات شيئا، ولم تسألا أمهما حتى ببراءة الطفولة، لم هي ذاهبة من دونهما.

أعتقد إن الإجابة هنا تكمن في أوراق مريا السرية، في المرأة التي سعت لصناعة الرغبة بكل ما فيها، وهدتها على رأسها ورأس حبيبها السلبي حينا والإيجابي حينا آخر. رجل يريدها ولا يريد إلغاء حياة هادئة يعيشها، وتشير الكاتبة هنا إلى مقعد الطفل المربوط في الخلف، كإشارة أخلاقية، يشير بها الحبيب ولا ينطقها، بأن لديه من يهتم بهم.

مريا عرفت الخلاص إذن، ونسعى لنعرف خلاص الراوية الرئيسية، درية عدلان، حتى بعد أن أكملت أوراق الغابة السرية، وهضمتها، وسعت للبحث عن رائحة الصديقة المفقودة، عثرت عليها لحما ودما، ونكتشف أن درية لن تكون أبدا كمريا برغم وصفها لنفسها بأنها تطابقها، مريا

تستطيع وهي لا تستطيع. ولعلها بانسجامها الطارئ مع الشاعر الذي يحمل شيئا من سمات حبيب صديقتها، أرادت أن تؤكد تطابق الصورة. وأقول أنني أعجبت جدا بشخصية مريا، وكنت أثناء قراءة رسائلها، مستمتعا للغاية، كذلك أعجبتني مايا الأسيوية كما قلت، وكنت أتمنى لو تمددت قليلا داخل النص.

أعرج على مسألة السودان الذي وصف كثيرا داخل النص، وصف بعيوبه ومحاسنه، بشكل مباشر، في أجزاء ابتعدت كثيرا عن الصياغة الأدبية، وإن كانت العيوب قد طغت على المحاسن، ومن الواضح أن الراوية، لا تستسيغه ماضيا أو حاضرا، العادات المتوارثة جهل وتخلف، والمشروع الذي سمي حضاريا بواسطة حكامه الجدد، وأدخل الناس في متاهات بلا حصر دجل وشعوذة، هنا لا مجال للحنين ليجرف واحدة مثل درية، الحنين له ضحاياه، الذين يستعذبون المر، ليجدوا ذواتهم داخل البلاد التي هجرتهم وأذلتهم.

أيضا أعجبتني بشدة تلك الفقرات التي تحدثت عن ختان البنات، الطقس الذي وصفته شخصيا في عدد من رواياتي، لكن ليس بهذه الدقة، ارتباط البطلة بالأشجار وتسميتها إحدى بنتيها على شجرة البان الوارفة، أعجبتني سلاسة الحكي والقفز من زمن إلى زمن بلا إحساس أنك تغير من جلستك أو توترك.

أخيرا أعتقد أن رواية الغابة السرية إضافة مبدعة للرواية السودانية، وهي أيضا وبتصميم مني رواية لن يعرف الرجال كيف يكتبونها.

العناوين الصحفية

لاحظت في عدد من الحوارات التي أجريت معي، في عدد من الصحف والمجلات العربية، إن الصحفي الذي أجرى الحوار، حين يستخلص له عنوانا، يتغاضى عن كثير من من النقاط الهامة، التي ذكرتها، ويتخذ من نقطة صغيرة، عنوانا لافتا، وحين يتتبع أي قارئ الحوار، لا يعثر على ما ذكر في العنوان، أو يعثر عليه، مجرد كلمة هامشية، ليست بحجم الحوار نفسه.

هذه الطريقة تربكني كثيرا، ولا بد تربك غيري من الذين يخضعون لحوارات مماثلة باستمرار، وتجعلني في كثير من الأحيان محرجا، وربما أتعرض لهجوم ما، أو عتاب من القارئ الذي يحترمني. أذكر حديثي عن انتشار الرواية في الوطن العربي، وأن كتابتها أصبحت من السهولة،

لدرجة أن أشخاصا كثيرين لا علاقة لهم بها، أصبحوا يكتبونها، وربما يعود ذلك بتأثير عكسي على الكتابة. نعم ذكرت ذلك، وأفاجأ بعنوان يقول بأنني قلت أن الخادمات وربات البيوت يقتلن الرواية، وترسل لي عدد من ربات البيوت المثقفات، رسائل في غاية القسوة، يستنكرن ما ذكرته، أيضا في حديثي عن الشعر، الذي طرق بشدة قبل الرواية، ودخلته الكثير من المآسي، خرج العنوان يقول بأن لا شعر يوجد في الوطن العربي، وهذا بالطبع غير لائق وغير معقول، في وجود شعراء مجيدين، ما زالوا يمنحون القصيدة بهاءها، ورونقها، وحين تحدثت عن انفصال جنوب السودان عن شماله، جاء العنوان استفزازيا، لدرجة أنني ركضت بين سطور حواري، أبحث عن ذلك العنوان، ولا أجده.

سؤالي الذي يلح علي في هذا الموضوع: هل هي جزء من دراسة الصحافة، وممارستها، أن تكون العناوين بهذه الطريقة؟. هل يتوقع الصحفي، أن لا يقرأ أحد حواره الذي أجراه مع كاتب أو فنان، إذا لم يشعله بعنوان حارق كهذا؟

أعتقد أن الكاتب، أي كاتب يخضع لمحاورته صحفيا، أو في الإعلام المرئي، يعني أنه كاتب يملك قاعدة ما، وسط قراء يعرفونه، وبالتالي يمكن أن يتابعوا حواراته، حتى لو كانت عناوينها باردة، ومهمة الحوار هنا، ليس البحث عن إثارة، أو نجومية، وإنما إضاءة جزء خاف من عالم الكاتب، ربما لا يعرفه القراء، كأن يعرفون شيئا عن طقوس كتابته، عن طريقة تجميعه لأفكاره، وعن خصوصية العوالم التي يستوحي منها، وبالتالي يفهمون

نصوصه، ويتفاعلون معها أكثر. ولأن الكاتب غير مخول له مراجعة عناوين حواراته، قبل أن تنشرها الصحيفة، تحدث مثل تلك الإثارة، ويعقبها حرج أو ارتباك.

الأمر بالطبع يختلف بالنسبة للإعلام المسموع والمرئي، هنا ليس ثمة عنوان، ولكن الكاتب أو صوته ما سيبين مباشرة أراءه، وبالتالي، يكون مسؤولا تماما عن كل كلمة قالها بلا أي تحريف أو إثارة، وشخصيا أفضل هذا النوع من الحوارات، الحوار المباشر بيني وبين من يستمع إلى في نفس اللحظة، ولن أجد بعد ذلك من يكتب أنني قلت كذا أو كذا.

أيضا يوجد ما يسمى بالشهادة الإبداعية، وهي شهادة يكتبها المبدع ويختار عنوانها، ويلقيها في ندوة عامة، وسط الناس، أو ينشرها في أي صحيفة بلا تدخل. وهذه أيضا يتحمل الكاتب مسؤوليتها تماما.

العامية والفصحى

سؤال وجه لي كثيرا، ولا بد أنه وجه لغيري من كتاب السرد، الذين لا يكتبون حوارات أو جملا من لهجتهم العامية، في نصوصهم. لماذا لا تكتب حوارات الشخوص بالعامية؟

بالنسبة لي، أنا أعتز باللهجة العامية باعتبارها هي اللهجة المحكية للشخوص وللمجتمعات، ولن تجد أبدا شخصا يحكي بعربية فصيحة، حتى لو كان يخاطب آخر ليس من بلاده، فغالبا ما يحكي بلغة بلده أو لغة وسيطة مشهورة كالعامية المصرية مثلا، التي يفهمها كل مواطن عربي تقريبا. لكن حين نجيء لكتاب سردي، لن يكتفي بمحلية المطالعة، وسيذهب إلى بلاد أخرى قد لا تفهم عامية بلد الكاتب، أو يسعى مستعرب أجنبي لترجمته للغة أخرى، يبدو الأمر عصيا، أن تضع لهجتك غير المستخدمة خارجيا، في نص تصدره خارجيا.

لقد قال لي أحد القراء مرة، إنه يبدي استغرابه من الحوار الذي يدور بالفصحى بين شخصيات بسيطة وقد لا تكون متعلمة لتتحدث بهذه الطلاقة، وإنه يفضل لو كنت استنطقتها بطبيعتها، وجعلتها تتحدث باللغة المحكية التي تستخدمها بشكل يومي، وضرب مثلا بشخصية زيتون الأعرابي البسيط الذي تبرع للمغني بكليته، في رواية زحف النمل.

أتفق مع القارئ، إن الأمر يبدو خارجا عن المألوف، وفي الواقع لا يمكن أن يتحدث زيتون هكذا، لكنها ضرورات الكتابة كما ذكرت، وإن النص ليظل نصا منتشرا وقابلا لقراءته في المغرب والجزائر مثلا، يجب أن يكون هكذا، ومن حسن الحظ إنني لا أستخدم الحوارات كثيرا، وغالبا ما أكتب سردا صرفا، في كثير من الأعمال.

على أنني أستخدم العامية أحيانا، وذلك حين أكتب قصائد تراثية داخل الروايات، أو أغنيات يرددها الجميع، وكتبت أغنيات المغني أحمد ذهب كلها باللهجة العامية، في زحف النمل. ومن المؤكد أن تلك الأغنيات لم تقرأ بطريقة صحيحة و لم يصل مغزاها لآخرين لا يعرفون كيف تنطق وتفهم العامية السودانية التي كتبت بها، وتذكرت عدم فهمي للأفلام المغربية أو الجزائرية التي شاهدتها، وكيف أنه توجد ترجمة للعامية التي تدور بها الحوارات، أسفل كل فيلم، هنا ليس ثمة غرابة ولكن مساعدة من صناع الفيلم، وأيضا مساهمة في انتشاره، لأنه لم يصنع أصلا ليشاهده المغرب العربي فقط.

بالنسبة للأعمال الكتابية المصرية، التي كتبت بالعامية، فهي كثيرة.

هناك روايات كتبت كاملة بالعامية، سردا وحوارا، وأعمال أخرى كانت عاميتها في الحوار، ومع ذلك يقرأها الجميع بلا توعك ولا إحساس بعدم الفهم، فقد صنعت العامية المصرية شهرتها منذ زمن بعيد، وأصبحت شبيهة بالفصحى من ناحية سعة التداول، والفهم حتى لدى الآخر غير العربي، وشاهدت مترجمين أجانب يكتبون على سيرهم الذاتية، أنهم يجيدون العربية والمصرية. هنا يستطيع الكتاب أن يستنطقوا الشخوص بعاميتهم بلا جدال، ولعل هذا هو السبب الذي جعل الصحفيين والقراء يسألون دائما عن سبب تحميل ألسنة الشخوص لدينا، بما لا تستطيع حمله في الواقع، قطعا يقارنون كتابتنا بالكتابة المصرية.

الصباغ

كانت الثانية عشر والنصف ظهرا في أحد أيام شهر يوليو الحارة والرطبة من العام الماضي، حين توقفت بعربتي أمام مجمع تجاري صغير يقع في الطريق العام، المؤدي إلى المستشفى الذي أعمل فيه. كنت أقصد محل البقالة، وفي ذهني تتراقص زجاجة مثلجة من الكوكاكولا. خطوت خطوتين باتجاه البقالة، وإذا بيد رطبة توضع على كتفي، وجسد قديم يحتضنني، وصوت أشيب يخرج متعثرا:

- هل تذكرتني؟ أنا جان بور.

قلت: نعم.. وكنت صادقا في ذلك، فالأسيوي الذي تجاوز الخامسة والسبعين، كان حاضرا في ذاكرتي، واحدا من أولئك المرضى المسنين الذين يمرون على عياداتنا بصفة شبه يومية، شاكين، ومضطربين، وخائفين

من موت يتصورونه وشيكا، ومزودين بعكاكيز الدواء والتطمين التي نصرفها لهم، ويتوكأون عليها في سيرهم البطيء. كان مريضا عاديا جدا، مثله مثل مئات آخرين، وربما لا يتذكره أحد على الإطلاق، لكن شغفي بالكتابة والأسماء والشخصيات، منحني ذاكرة مفتوحة، تحتفي بالجميع بلا استثناء.

في تلك اللحظة أمسكني الرجل من يدي بشدة، جرني إلى كافتيريا صغيرة كانت ملاصقة لمحل البقالة، وتقدم وجبات سريعة، كان يقسم بشدة أن يستضيفني في غداء متعجل في تلك الكافتيريا، احتفالا بمناسبة عثوره علي مصادفة، وتحت ضغط من إلحاحه الغريب وافقت، وأنا أنظر إلى ساعتي في قلق، خوفا من أن يسرقني الوقت ولدي مناوبة في الواحدة.

شملتنا الكافتيريا بجوها البارد، ورائحة عمالها وطعامها، وضجيج ماكينة (الآيس-كريم) التي كانت تعمل بكفاءة، مشاركة في تثليج ذلك الصيف الحار والرطب. كان الغداء عاديا ومتوقعا في مكان كهذا، شطيرتين من همبورجر شبه محروق، وكوبا من برتقال مر، وصوت الرجل يمتد:

- هل ما زلت تعمل في الصبغ؟

إذن فقد كان ذلك الاحتفاء، وذلك الإلحاح الغريب في تلك الدعوة لا يخصني بالتأكيد، ولكن يخص صباغا تربطه بالعجوز صداقة قديمة، أراد تجديدها حين عثر عليه مصادفة. كنت قد أكلت كثيرا من لقم الاحتفاء، شربت عدة جرعات من البرتقال المر، وكان تراجعي في تلك اللحظة،

وإخباره بالخطأ، كفيلا بإجهاض نشوته، وهو يكرم صديقا. قلت: لا.. تركت تلك المهنة، والآن أعمل بالتجارة.

- أنا أيضا أعمل بالتجارة.

قال الرجل واسترخى على مقعده البلاستيك، مشعلا سيجارة من ماركة مالبرو، لا بد قد أضافت تلفا جديدا إلى أعوامه، شد نفسا طويلا وأضاف:

- وابنك حسون، ذلك الشقي.. هل كبر؟

بالقطع لم أكن أبا "حسون"، ولم يكن في عائلتي، ولا قبيلتي ولا أصدقائي ولا جيراني، واحدا بهذا الاسم. كنت بديلا غير متقن، متورطا في صداقة ليست لي، ومهنة لم أمتهنها في يوم من الأيام، واحتفاء فقير لا بد ستقتلني حموضته في الدقائق القادمة. تحسست حبوب (الموكسال) في جيبي واطمأننت:

- نعم.. لقد كبر.

كانت الواحدة تقترب، ومعها يقترب موعد الدوام الرسمي لمناوبتي، شكرت الرجل على عجل، وأعطيته رقما لهاتف محمول كنت أملكه ولا أستخدمه إلا نادرا، كان مصرا على استضافتي في منزله، وسأل عن وسيلة اتصال. لمحته من خلف الزجاج الرطب يدفع ثمن الاحتفاء، ويخطو بتلك الخطوات المسنة إلى رطوبة الصيف.

بعد عدة أيام جاء "جان بور" إلى عيادتي التي تعود على زيارتها، كان

يحمل ملفا ضخما غطته عشرات العقاقير المكافحة ضد مرض السكر، وارتفاع ضغط الدم، والكوليسترول، والتهاب المفاصل، ورعشة الأطراف الناتجة من الشيخوخة، والآثار الجانبية للدواء. سلم علي سلام مريض لطبيب، وجلس على مقعد الكشف يشكو أعراضه، من دون أن يخطر على باله أو ينتبه إلى أنه يجلس أمام ذات "الصباغ" الذي استضافه منذ عدة أيام، في كافتيريا فقيرة على الطريق العام.

الكتابة والتأرجح

في جلسة نقاشية ضمت عددا من المثقفين، فيهم كتاب ونقاد وشعراء، تطرقنا إلى مسألة الإنتاج الروائي لعدد من الكتاب المعروفين، سواء على الصعيد العربي أو العالمي، إلى مسألة أن تكون للكاتب أعمال فذة، ابتكر فيها تقنيات جديدة، وعالجها بحنكة، وفي نفس الوقت، تخرج من قلمه، أعمال غاية في الضعف، ولا يمكن أن تقارن بتلك الأعمال المجيدة التي بقيت في ذاكرة الناس.

أولا أريد أن أؤكد على تلك المسألة باعتباري كاتبا يمكن أن يتأرجح قلمه بين الجيد وغير الجيد، أقول إن المسألة لا ترتبط بأي خلل في أدوات الكاتب، ولا تقلل من شأن كتابته، أيضا لا علاقة لها بالبدايات التي توصف دائما بأنها الأضعف في التاريخ الإنتاجي لأي كاتب، فقد كتب

عديدون في بداياتهم أعمالا أصبحت خالدة، و لم يكتبوا مثلها بعد ذلك أبدا، ولدي مثال رواية الأشياء تتداعى، للنيجري الكبير تشنوا تشيبي، فقد كانت شرارة البداية في تاريخه، وما تزال هي الأقوى بالرغم من أن الكاتب أصدر أعمالا عديدة بعدها، لم ترتق لأن تبلغ مستواها، وأزعم أن الأعمال التي أنجزها جارثيا ماركيز في بداياته أو في منتصف تاريخه الإبداعي، كانت أعظم شأنا من أعماله الأخيرة، فقد يستغرب القارئ الذي التهم مئة عام من العزلة برغم ضخامتها، وتعدد شخوصها وإمكان التوهان فيها، حين يحس بعدم الرغبة في إكمال رواية صغيرة جدا ومحدودة الأبطال، مثل: ذكرى غانياتي الحزينات. الكاتب واحد، والأسلوب شبه واحد، لكن روح النص القوية التي تأسر، كانت متوفرة في مئة عام من العزلة، و لم يقدر لها أن تتوفر في الرواية الأخرى.

أعتقد أن ظروفا كثيرة تحيط بعمل الكاتب، تجعل من ذلك النص تحفة، ومن الآخر عملا عاديا لا يلفت النظر، هناك أعمال كتبت تحت ظروف سياسية واقتصادية معينة عاصرها الكاتب، وظهرت في كتبه، مثل أعمال كتبها نجيب محفوظ في فترة ما من عمر مصر السياسي، و لم تنجح، ونوه صديقنا الدكتور صبري حافظ إلى رواية مثل: أمام العرش التي لم تنجح على المستوى الإبداعي، ولن تقترب من ثلاثية محفوظ الخالدة.

وفي مطالعتي لأعمال كتاب آخرين، أحب كتابتهم مثل فارجاس يوسا، وأستورياس، عثرت بالضبط على ما سميته تأرجح الكتابة، ليس كل الأعمال مبهرة، وهناك أعمال حتى أقل من العادية.

لا أنسى هنا أن أشير إلى مسألة التذوق الشخصي التي تظلم الكتاب أحيانا. بمعنى أن يحب قارئ كتابا معينا، لكاتب ما، ويتخذه قياسا تذوقيا لأعماله الأخرى، وبالتالي يخضعها للظلم. القراءة هنا ليست متكاملة، ولم تحلل الكتاب بكل تقنياته وفنياته، وإنما كانت بعدسات ثبتت على الكتاب الذي في ذهن القارئ وأحبه.

شخصيا وفي بداياتي، كانت لي نظرة التذوق تلك، ولكن بشيء من التدريب، استطعت أن أميز بين الكتاب الجيد وغير الجيد، لنفس الكاتب، وأتعرف على تأرجح الكتابة الذي لا يقلل أبدا من مكانة أي كاتب.

تشابه العوالم واختلافها

من خلال متابعتي للتجارب الروائية، سوى أكانت تلك التجارب عربية، أو أجنبية تمت ترجمتها إلى اللغة العربية، دائما ما أجد تشابها في العوالم التي يبتكرها كاتب متعدد النصوص، بمعنى أنك تقرأ نصوصا عدة، بحكايات جديدة، ولكنها تنصب في نفس القالب الذي أنجز من قبل، وربما تعثر على شخصيات كثيرة ظهرت في عدة نصوص، إما بنفس ملامحها القديمة، أو تكون قد شاخت واكتست ملامح جديدة، ودورا جديدا في الحكاية اللاحقة.

من هذا المنطلق، تمت إحالة عدد كبير من الكتاب الكبار إلى النص الأكثر شهرة، أو النص الذي تكاملت فيه كل أجواء الكتابة للكاتب، تكاملت شخصياته، وأدواته الفنية، وحواراته وكل ما يمت إلى كتابته

بصلة، وأصبح ينظر للنصوص الأخرى السابقة أو اللاحقة، بنظرة لا تود أن تنصفها، ولكن تصنفها إما إرهاصات سابقة للنص الكبير، أو امتدادا له، وحين تقرأ مائة عام من العزلة، الرواية الأكثر شهرة لماركيز، تود أن تبحث عن روايات أخرى للكاتب من شدة انبهارك بها، ستعثر على رواية الجنرال في متاهة، وتصنفها إرهاصا سابقا، والحب في زمن الكوليرا، وتصنفها امتدادا، وفي الواقع إن ما أنجزه الكاتب هنا، هو الذي ظلم نصوصه الأخرى وأحالها إلى تلك النظرية. ولطالما أحسست بالتعاطف الشديد مع نص كبندر شاه للطيب صالح، ذلك أنه ظلم كثيرا بسبب أنه أتي بعد رواية عظيمة مثل موسم الهجرة إلى الشمال، و لم يستطع زحزحة الأنظار عنها، ليجلس متقرفصا في وسط الكتابة النقدية التي مجدت الطيب وموسم هجرته إلى الشمال لعقود طويلة وإلى الآن.

هناك كتاب أنجزوا العالم الواحد الذي تحدثت عنه، ولم يردوا أن يفارقوه حتى لو كانت الكتابة بعيدة عنه، وما زال صديقنا إبراهيم الكوني، مبتكر دهشة الصحراء وعالمها، هو أفضل من كتب عن تلك المناطق، برغم أن كتابا أوروبيين عديدين، كتبوا روايات عن بدو الصحراء وعاداتهم، و لم يستطيعوا أن ينجزوا ما أنجزه الكوني، عالم الكوني واحد ومتجدد بحكاياته في كل نص، ولم يترك فرصة لأحد كي يختصره في رواية واحدة، ذلك أن لا رواية عند الكوني تقهر رواية أخرى، ولا نص ينتصر على نص، إنما نصوص إخوة يتشابهون في الملامح ويختلفون في الشخصيات.

شخصيا أحب أن أغوص في عوالم أي كاتب ينجز عوالم، أحب أن

أقرأ النصوص كلها حتى لو وجدتها متشابهة، هذا ما أريد أن يفعله كل قارئ محب للآداب، أن يستنطق العوالم المتشابهة لكاتب ما، ويخرج منها بمتعة مختلفة.

تاج السر أم كل هؤلاء؟

في رسالة وصلتني من قارئ لروايتي صائد اليرقات، كتب القارئ كلاما جيدا، لكنه خاطبني باسم تاج ختم السر، بالرغم من أنه قرأ كتابا من المفترض أنه مزيل باسمي، و لم أستغرب من ذلك، فمنذ خرجت من السودان للدراسة بمصر في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، وثمة تقلبات كثيرة ترافق اسمي، كانوا يكتبون اسم والدي: تيسير، على أوراق الامتحانات، وفي الإعانة الشهرية التي كنا نتلقاها من الحكومة، وتصرف من أحد البنوك، ودائما ما يحدث إرباك شديد، ويتم تغيير أوراق امتحاني والناس جالسين مشدودين على طاولات الاختبار، وربما أتأخر في صرف إعانتي لأيام طويلة حتى يعدل البنك اسمي بروتين غريب. وفي حوار في تلفزيون عربي في إحدى السنوات، عرفتني المذيعة المفترض أنها تبث

برنامجا ثقافيا مع كاتب مشارك، بأنني سر التاج، كان اللقاء مباشرا على الهواء، وسببت حرجا للمذيعة بأن عدلت لها الاسم، وأيضا نفس سر التاج هذا، كان اسمي في برنامج ثقافي في إذاعة عربية أخرى، و لم أعدله في تلك المرة، تركت المذيعة القديمة والمتوغلة في الثقافة تردده طوال الحلقة التي استمرت ساعة كاملة. وفي إحدى الصحف، كتب ناقد عن إحدى رواياتي بحب، لكنه سماني تاج السر حسن، وحتى في بلدي حين أعلنوا عن المشاركين في إحدى فعاليات جائزة الطيب صالح للإبداع الروائي، التي تجري سنويا في الخرطوم، وسأدلي فيها بشهادتي الإبداعية، كتبوا أمير تاج الدين.

لا أدري ما الصعوبة في اسم يبدو عاديا لدى أهله، ويمكن نطقه بسهولة، ومئات الآلاف من السودانيين المنتشرين في شتى بقاع الأرض، يحملونه، ليس خاصا بقبيلة بدائية، ولا اخترع حديثا، حتى نترك مساحة من الوقت للألسن لتتعرف على نطقه، وللأقلام أن تتعود كتابته، وأذكر أن والدي، غضب بشدة حين أخبرته عن تيسير الذي يكتب بديلا عنه في أوراق امتحاني، ولا بد أنه أحس بالإهانة، وهو يرى اسمه الذي يعتبره عريقا ومميزا، يحرف إلى اسم فتاة من الجيل الحديث.

ذكرني هذا الموضوع، بما تعرض له الخال الراحل الطيب صالح، حين خاطبه أحدهم يوما باسم صالح أبو الطيب، كتب يومها مقالا ساخرا لا أذكره الآن، لكن أذكر أصداءه تلك الأيام، كيف أن الرجل الجاد دائما، كتب بسخرية مريرة عن عرب المركز وعرب الأطراف، وأن من كان من

الأطراف، لا أهمية له، وينظر إليه تلك النظرة التي لا تستثني حتى اسمه، وقد كان اسم الطيب أوضح كثيرا من تاج السر، وأيضا ألمع في المجال الثقافي من اسمي المتواضع، و لم يكن ثمة مبرر أبدا لتحريفه.

أعود إلى مسألة اسمي الذي يأبى الكثيرون أن يكتبونه صحيحا حتى الآن، لأقول أنني أعتز به كما يعتز الناس بأسمائهم، وقد كان تاج السر محمد نور، محبا لاسمه كثيرا، وكان أيضا رجلا لامعا في مجاله الإداري، وواحدا من الشخصيات المؤثرة في مجتمع مدينة بورسودان باعتباره أحد الذين يحلون المشاكل مهما تعقدت، ويشهدون في عقود القران، ويعودون المرضى، ويتبعون الموتى، وظل مكانه في الأسرة الكبيرة شاغرا حتى الآن.

توقيعنا وتوقيع كارلو زافون

منذ عشر سنوات، جلست متأنقا بحلة جديدة، في أحد معارض الكتب لأوقع إحدى رواياتي الصادرة حديثا. كنت منتشيا بشدة، وأحلم بجمهور عريض، تضيق به المساحة الصغيرة التي خصصت للناشر في المعرض، لكن الأمر كان مخيبا للغاية، فطوال ساعتين أمضيتهما في جلسة قلقة، وغير مريحة إطلاقا على مقعد صغير، لم يأتني سوى مصور صحفي، التقط صورة بائسة ومضى من دون أن يعرف اسم الكتاب حتى، وشابان من أهل السودان، لم يكونا يقصدانني بالتحديد، وعثرا علي مصادفة أثناء المرور في المعرض، ليستلما نسختين موقعتين بلا حماس، وأظنهما اقتنياها بدافع الحرج. ومنذ خمس سنوات عثرت على الشاعر الشهير عبد الرحمن الأبنودي، يجلس على مقعد من البلاستيك، في جناح ناشره

بمعرض الدوحة للكتاب، ويمر به الزوار المتصفحون للكتب، من دون أن يحييوه حتى، أو يطلبوا توقيعا تذكاريا، من ذلك الشاعر الذي أبكى الأرض وأبكته، وصاغ الصعيد المصري شعرا مجنونا وعذبا، وملحميا لسنوات ليست بالقليلة. وطوال جلوسي معه، لم ينتبه سوى عدد قليل من المهتمين بالشعر، وأبناء جيله، وسيدات مسنات كن يعرفنه فيما مضى، وشددنه بالحكي عن أيام الشباب التي ضاعت ولن تعود أبدا. ومنذ عامين شاهدت الروائي الإسباني كارلو رويس زافون، يوقع النسخة الإنجليزية من روايته الملحمية ظل الريح، التي وزعت بالملايين بشتى اللغات، في أحد الميادين العامة بلندن. كان يرتدي قميصا أخضر بنصف كم، وسروالا من الجينز الباهت، وقد تدافع حوله الآلاف من كل الأجيال والسحنات، في طوابير طويلة، كل يحمل ظل ريحه في يده، ويبدو قلقا أن لا يتسع الوقت حتى يحظى بمصافحة زافون، والحصول على توقيع سحري، ألغى من أجله كل ارتباطاته، وتفرغ للتدافع في ذلك الزخم الغريب.

إذا كان زافون قد كتب مدينته برشلونة ببهارات أسطورية، وصدرها لعالم، ففي كتابنا العرب، من حول قرية صغيرة في صعيد مصر مثلا، أو بقعة نائية بلا ماء ولا ضوء في الصحراء الكبرى، إلى بؤرة إشعاع أشد أسطورية من ظل الريح، وإذا كان قد عربد في اللغة الإسبانية، واخترع ظلالا لها، ففي الوطن العربي كثيرون، لعبوا باللغة العربية أيضا، وأنتجوا ظلالا أكثر امتدادا من ظل الريح في برشلونة، وإذا كان عالمه خصبا حقيقة، وفيه من الإيحاءات ما يقطع النفس، ففي اليمن والسودان، وموريتانيا، عوالم تستنطق الصخور، وتصيب الكتابة بالهوس، وتدحرج القارئ

إلى ساعات من النشوة، ينسى فيها أنه مجرد قارئ، ويعيش مع شخوص الرواية، كل الذي عاشوه، وأخيرا إذا كان موضوعه عن الهوية والالتصاق بالأرض، ففينا من التصق بالأرض العربية، حتى انكسر أنفه، وسالت دماء قصائده ورواياته، وتمزقت ثيابه الكتابية.

إذن ليس الأمر مستوى كتابة، أو تجليات إبداع يعرفها الغربيون، ولا نعرفها نحن العرب، وليس تحررا من كل القيود التي تمنع الكتابة لدى العرب، وقد شهدت السنوات الأخيرة في العالم العربي، تحررا حتى من سلطة الديكتاتوريات التي كانت تعيق التداول الحر للأحلام، وتوقد الظلام في نهارات الذين يجرمون إبداعيا في نظرها.

الأمر ثقافة بحتة. ثقافة أن تتربى قارئا نهما، يطارد الكتب أينما حلت وحل، ويسعى لتجديد ثقافته قبل أن تصدأ، ويحتفي بكاتب مهما كان تواضع كتابته، احتفاءه بضوء انبلج فجأة، أو حسناء مليحة حيته بابتسامة، وأن تتربى ساعيا أبديا من أجل الرزق، في بلاد تعتبر فيها الكهرباء السهلة الرخيصة، ترفا مستخيلا، ولقمة العيش التي هي من أبسط حقوق الحياة، لغزا عصيا، ينبغي إعادة حله في كل يوم جديد.

في حالة زافون، وغيره من كتاب الغرب، لا يوجد مصطلح اسمه البحث عن قارئ، ولا يوجد قلق ولا أناقة بحلل جديدة زاهية، حين يعلن عن حفل توقيع في أي مكان، لقد أنجز الكاتب المتغرغ تماما للكتابة، عمله، وأنجز الناشر طبعات عدة، بعضها بغلاف سميك لهواة تزيين المكتبات بكتب لا تصل إليها عوامل الدهر، وبعضها بورق عادي فاخر لمتعة القراء

الميسورين، وطبعات شعبية جدا، تصل حتى لعمال الشحن والتفريغ، ومحطات تزويد السيارات بالوقود، القارئ هو من يصنع الأسطورة، من يحول الكاتب إلى نجم شديد التوهج، ومن يسعى لاكتشاف كاتبه، ومن ثم متابعته بعد ذلك أو تركه، وليس بغريب أبدا أن تصل طبعات الكتب هناك إلى ملايين النسخ، وتنفد بسرعة، كما تنفد آنابيب البوتاجاز في بلاد كثيرة من الوطن العربي.

المقارنة بالتأكيد تبدو غير عادلة، ولا مجال للتذمر من عدم وجود قراء عندنا، وعدم وجود جمهور في حفلات التوقيع، إلا أولئك الذين جاءوا بدافع الصداقة البحتة، أو بضغط من الرسائل النصية التي يرسلها الكاتب في الغالب بنفسه لمن يعرفهم، أو مؤازرة للجمال حين توقع فتاة جميلة على كتاب، حتى لو كان خواطر عاطفية بلا قيمة أدبية، فالقارئ العربي، في الغالب مواطن منشغل، يشغله العمل، وتشغله ضرورات الحياة، وتشغله مصاعب كثيرة لا يستطيع تجاوزها ليعيش ساعات مع كتاب، وبالتالي يكون وجوده في حفل توقيع لكاتب، بلا معنى لأن الأشياء كلها ما عدا لقمة العيش، تبدو بلا معنى.

في هذه الدورة قبل الماضية، من معرض أبو ظبي للكتاب، حدث ثمة شيء جديد أتمنى لو تم اعتماده في معارض الكتب العربية الأخرى في دوراتها اللاحقة، فبدلا من حفلات التوقيع العشوائية في مساحات الناشرين الضيقة، وبجمهور لا يأتي إلا مصادفة، تمت دعوة عدد من الكتاب العرب والأجانب، ليوقعوا رسميا في ركن جميل، بعد ندوة حوارية مع

الكاتب، يكشف فيها شيئا من عالمه وطقوسه، وتوزع لهم النسخ التي سيوقعها الكاتب مجانا. لقد شاركت في ذلك البرنامج المستحدث لحسن الحظ، جلست في الركن المرتب جيدا، وتحاورت، وعثرت لأول مرة على جمهور يبدو أنه جاء خصيصا من أجل التوقيع، وكانت المفاجأة أن معظم من أتى، كان يحمل نسخا من كتب أخرى، وأراد الحصول على التوقيع، وهناك من سأل أسئلة كان من الواضح أنها نتيجة قراءة أو معرفة بما أنتجته. ما انطبق علي انطبق على زملاء آخرين، ابتهجوا ربما لأول مرة برؤية جمهور يصافحهم، ويسعى للحصول على توقيعهم. بالطبع لم يقترب الأمر من مرحلة زافون التي قلت أنها نتيجة تربية عنيفة منذ الصغر، لكن يفتح كوة أمل صغيرة، ربما تتسع ويدخل عبرها ضوء بهيج في يوم من الأيام. ولعل كتاب الأطفال الذين حضروا ووقعوا أيضا، هم المربون لجيل جديد من القراء، ربما يصل بكتابتنا العربية، إلى (الزافونية) ذات يوم.

حلم الكتابة

قرأت في أحد المواقع الإليكترونية المختصة بالرواية وكل ما يمت إليها بصلة، رسالة من كاتب عربي لم يبدأ الكتابة بعد، وببحث عن روائيين خبراء لمساعدته على كتابة رواية أمريكية في جوها وشخوصها، وطريقة تناولها للموضوع، بالرغم من أنه لم ير أمريكا من قبل ولكن يستطيع حسب قناعته، أن يكتبها في رواية وبطريقة أفضل من كتابها الأصليين، ويزعم الكاتب الذي لم يبدأ الكتابة بعد، أنه سيكون أول عربي يكتب مثل هذه الرواية، وسيؤسس لمدرسة كتابية جديدة بعد أن ينجز روايته وبمساعدة الآخرين الذين يود أن يمنحوه سر الكتابة حتى يستخدم ذلك السر.

الموضوع برمته يدعو للعجب أو للضحك، والموقع الذي نشره،

وطلب من متصفحيه من الكتاب، مساعدة الأخ الباحث عن السر، لابد نشره نوعا من السخرية، لأن لا كاتب في ذهنه نص أو حتى ليس في ذهنه أي نص، يبعث بمثل تلك الرسالة، خاصة أنها تدعي الريادة في منجز لم ينجز بعد، وما دام هناك ريادة فلابد من أفكار عظيمة واجتهادات شخصية، ومحاولات مضنية وسنين من الشقاء والحفر، وساعات يومية من البحث والتقصي، حتى يتم كل شيء، وفي خلال السنوات الطويلة التي عاصرت فيها الكتابة وشاغلي مقاعدها، لم أجد كاتبا يسأل عن طريقة كتابة الرواية، لا أحد يدعي أنه أنجز وهو لم ينجز، ولا أحد يضع عنوانه ورقم هاتفه، وبريده الإليكتروني في موقع واسع الانتشار، من أجل أن تأتيه رواية جاهزة، أو أفكار ربما يستطيع استخدامها أو لا يستطيع.

ما ذكرته يدعم كلامي الذي رددته كثيرا، وهو أن كتابة الرواية أصبحت هواية من لا هواية له، وشغل من لا شغل له، ومثلما تم امتطاء عربة الشعر من قبل حتى ضجت بما تحمله، وبركت في الدرب لافظة الجيد والرديء، وطاردة للقراء من تلك القراءة، وساحبة الشعر من رقبته لتمرغه في التراب، سيحدث الآن للرواية، ستبرك عربتها قريبا، وسيفر الناس من قراءتها، خاصة أن دور النشر قد كثرت وتشعبت، وما تحصده من مبالغ ضخمة من جيوب مدعي كتابة الرواية، كثير جدا،وهكذا.

لا أريد أن يصاب مبدعونا الحقيقيون بالإحباط والتشاؤم، ولا أريد أن تتوقف أقلام يانعة ومؤرقة، لكن بالمقابل لا أريد أن يأتي اليوم الذي نجد فيه أنفسنا بلا قراء، بلا فن حقيقي، وبكتب تركد على أرففها من دون أن

ينفض غبارها أحد، وقد كنا نتحسر في الماضي على شح الإنتاج العربي مقارنة بالإنتاج الأوروبي الذي ينتج آلاف العناوين شهريا، والآن نتحسر على غزارة الإنتاج الذي ليس كله إنتاجا جديرا بمطالعته.

سائق يروي

من الشخصيات المميزة التي التقيت بها في كوالالمبور أثناء زيارة لها، سائق أجرة هندي من الذين توطنوا في ماليزيا أيام الاستعمار الإنجليزي، وأصبحوا من أهل البلد الذين يعرفون مداخلها ومخارجها، ويشاركون في التنمية والتطور. كان اسمه راجا، أحد الأسماء الهندية الكلاسيكية المستخدمة بكثافة في كل جيل، وكان في نحو الخامسة والسبعين، لكن حيويته كبيرة، يقود في المنحنيات والتلال برشاقة، ويتحدث بإنجليزية صميمة، قال إنه تعلمها من زمن الاستعمار، حين كان سائقا خاصا لأحد المسؤولين الأجانب، علمه اللغة، وفنون الإتكيت، وأيضا أن يكون أنيقا في كل وقت من أوقاته، ومهما كان مزاجه معكرا، أو حتى عاجزا عن الحراك بسبب كبر السن والمرض. كان كلاما جاذبا، جعلني أتأمل تلك الأناقة،

في زيه الذي يرتديه ساعة أن أقلني، ولا أعثر عليها، أصارحه بانطباعي، فيتجاهل ذلك الإنطباع، ويعرج على موضوع آخر. وفي خلال رحلتي معه التي استمرت حوالي الساعة، وقدمنا فيها من أحد الأماكن السياحية الشهيرة، إلى داخل كوالالمبور، اكتشفت في راجا، الهندي المسن، ثقافة لم يعرفها سائقو الأجرة في بلادنا، الذين تقتصر دردشتهم في الغالب على غلاء الأسعار، وشح قطع الغيار، وضعف الأجرة التي يتقاضونها من الزبائن مقارنة بالأجور التي يتلقاها آخرون، يعملون في أجواء أقل مشقة. كان راجا يعرف العالم من بحر العرب حتى المكسيك، يعرف التكتلات السياسية في كل دولة، يعرف الانتخابات الصحيحة والمزورة، يعرف بلدان الواقفين في الطرق، من وجوههم، وحدثني كثيرا عن الثورات العربية، وما يمكن أن يتلوها من مستقبل للدول التي اندلعت فيها، ولم ينس حتى أن يتحدث عن الثقافة، وإنها حتما ستتغير باكتساب الحريات. ولأنني من السودان الذي حدث فيه زلزال كبير اسمه انفصال الجنوب، وتكوينه دولة أخرى منذ أشهر قليلة، حدثني راجا بالتفصيل عن رأيه الشخصي في أسباب ذلك الانفصال وتوابعه، فهو متأكد من أن الأمر تاريخي وليس وليد سنوات قريبة، وسألني إن كنت أوافقه الرأي، وكان لا بد أن أوافقه، ذلك أن تحليلاته كانت في مجملها تحليلات صائبة.

الأمر الذي أدهشني حقيقة، هو ما قاله السائق الغريب وهو يقترب بي من خط النهاية، قال إنه كتب في حياته سبعين قصة قصيرة مستوحاة من حياة أسرته التي هاجرت من موطنها الأصلي إلى هنا، وإنه خص والدته بعشرين قصة من تلك القصص، باعتبارها كانت بذرة الخير في

عائلته، وما زال يتذكر توليها أمور العائلة بالرغم من أنها رحلت منذ زمن طويل.. شدني موضوع الكتابة كثيرا، وجدت نفسي أسأله عن مصير تلك القصص؟ وهل نشرت في مكان ما، وأدلى شخص برأيه فيها؟، فرد في حزن، إنه حين كتبها لم يكن يقصد أن تنتشر، وإنما أن تبقى هكذا توثيقا شخصيا له، يذكره بعائلته القديمة، ويبهجه بأنه كاتب لا يقل براعة عن الكتاب الآخرين.

كان الكلام كثيرا، وراجا لا يريد أن يتوقف عن الحكي حتى حين وصلت إلى مكان سكني، أوقف عربته وتبعني حتى مدخل العمارة، وما زال يحكي. إنه في نظري راوية شفاهي كبير، وقطعا في نظر زبائن آخرين لا يستطعمون الحكي، ثرثارا كبيرا، لا يتمنون الركوب معه مرة أخرى.

زوجة لاعب الكرة

كان ذلك منذ أكثر من عشرين عاما، وأثناء مرورنا اليومي المعتاد، على عنابر الباطنية في مستشفى بورسودان، لاحظت وجود فتاة مشرقة، تقف بجانب سرير رجل مسن مصاب بتليف الكبد، وقرحة في الإثني عشر، وعدة أمراض أخرى متفاوتة الخطورة، و لم يكن ثمة أمل في علاجه بأي حال من الأحوال، كانت تحمل مروحة من الخشب، تحاول أن تهش بها الحر عن الشيخ المريض، تسنده على يديها، وتسقيه، ورددت عدة أسئلة عن حال الرجل، الذي هو والدها، وحصلت على إجابات مبهمة، كان صوتها موسيقيا وهي تسأل، وثوبها أزرق عليه نقوش حمراء، لكن نكهة شبيهة بنكهة الفقر كانت واضحة في صندلها القديم، وأساور يديها التي كانت من قصدير، وحين انتهى المرور، وخرجنا من العنبر، فوجئت أن

الفتاة تناديني باسمي، ولم يردد أحد اسمي أمامها، عدت لأسالها عن طلبها، وأخاف أن تتوغل في السؤال عن صحة والدها، وأضطر في النهاية أن أخبرها، بأنه راحل، وكان ذلك من الأمور الشاقة التي تواجه الطبيب في أي وقت. قالت بأنها من سكان العاصمة، وزوجة للاعب كرة قدم شهير، كان في ذلك الوقت نجما حقيقيا، وأنها جاءت اليوم فقط حين علمت بمرض والدها، وهي تسأل إن كان بإمكانها نقله للعاصمة، حيث المستشفيات أرفع شأنا، والأطباء أكثر دراية، والزوج النجم له علاقاته الواسعة. أخبرتها بأننا نبذل جهدا كبيرا، وصحة الرجل لا تحتمل تحريكه حتى إلى باب الغرفة، وعليها أن تتركه حيث يعالج.

في الأيام التالية، كنت أستدعي إلى ذلك العنبر كثيرا، تستدعيني الفتاة التي ما زالت ترتدي الثوب الأزرق لتسألني في أي شيء يخطر على بالها، وتحدثني عن زوجها النجم الذي يتابع حالة الوالد عن بعد، وسيحضر قريبا بنفسه، ويمكنني أن أصادقه، وأجلس معه، وأخرج بنفس الانطباع الذي خرجت هي به من يوم أن عرفته، بأنها عرفت أنبل رجل في الدنيا على الإطلاق. أهدتني كتابا لغادة السمان، ومجموعة شعرية لنزار، وكراسة مدرسية، عليها خواطر عشوائية لم أشم فيها رائحة فن، وأرتني صورة لزوجها اللاعب، وهو يركل الكرة برأسه، محرزا هدفا. ثم فجأة وبعد أسبوعين، مات الرجل المسن، واختفت الفتاة ذات الثوب الأزرق إلى الأبد.

منذ عدة أيام التقيت لاعب الكرة النجم الذي سمعت سيرته العطرة عشرات المرات في تلك الأيام البعيدة، كان قد تهدم، أبيض رأسه وشاربه،

وجاء يشكو من ألم في الركبتين، وسرد تاريخه الكروي باقتضاب مفعم بالسخط، أن لا أحدا كرمه أو سأل عنه حين كبر حتى اضطر للهجرة والعمل سائق شاحنة لنقل الحصى والرمل، تذكرت ذات الثوب الأزرق فجأة، تذكرتها بحدة وقلت للرجل إنني كنت الطبيب المشرف على علاج والد زوجته، وعرفتها في تلك الأيام، رددت اسمها الذي ما زلت أذكره كاملا، وسألته عن حالها، وكانت مفاجأة لي أن اللاعب بدا مندهشا، وأخبرني بصرامة أنه لم يتزوج قط، ولم يعرف أبدا فتاة بهذا الاسم. ومعلوماته عن مدينة بورسودان، هي أنها ميناء السودان ولا شيء آخر.

شخصية أمريكية

في كوالالمبور، العاصمة الآسيوية الجميلة، والنموذج المتحضر الذي ينبغي أن تكون عليه العواصم، التقيت بمواطن أمريكي. كان اسمه روبرت ج، في حوالي الخامسة والسبعين، أو أكبر قليلا، يتحدث لغات آسيا كلها، ويرتدي الزي التقليدي لليابان، ويبدو مثقفا وهادئا ولبقا، ومستعدا للتواصل مع كل من يود أن يتواصل معه. هذا الرجل، روبرت ج، هو في الواقع أستاذ متقاعد للفلسفة، شارك في حرب فيتنام الشهيرة، وخرج منها بقناعة تامة، أنه لن يصلح للعيش في بلاده، ومن ثم خرج منها في أواخر سبعينيات القرن الماضي، متوجها لليابان، ولم يعد إليها بعد ذلك قط. يقول إنه وجد في آسيا ضالته،أحب لغاتها وتراثها ومتاحفها وأنهارها، وحتى موسيقاها التقليدية، وقام بعزفها على جيتاره الخاص، الذي يحمله إلى أي مكان يذهب إليه، حتى قاعات الدراسة، التي كان يعلم فيها

التلاميذ. وبمساعدة هذا الجيتار، قام بتأليف وتلحين أغنيات متعددة في حب آسيا،أسمعني منها: طوكيو في قلبي، وعاشق كوالا،ومديح الجمال في شوارع سايجون.

كانت هذه من المرات القليلة التي أسمع فيها،بمواطن من العالم الكبير الذي يقود العالم الأصغر، ومن بلاد يطمح حتى باعة الترمس والفلافل في حواري الخرطوم، بالهجرة إليها بلا مؤهلات وبناء مستقبل هناك، يفر إلى بلاد أخرى، أقل بريقا من بلاده، ولعلها المرة الأولى التي أرى فيها عاشقا لآسيا، لا يتحدث إلا عن حضارتها وتراثها بهذا الشكل، صحيح أنه يقيم في اليابان المتحضرة، والمتقدمة تقنيا، تزوج فيها، وأنجب فيها، وحاضر في جامعاتها وتقاعد، لكن تفاعله مع القارة الآسيوية بهذا الشكل، أمر نادر للغاية. هنا لا يجب أن نستغرب كثيرا، خاصة إذاما اعترفنا بقناعات الأفراد، ورغباتهم، وأمزجتهم، سنجد بلا شك، رجلا صاحب رغبة ومزاج، وحياة أراد لها أن تكون مميزة، ولا بد أن غيره كثيرين انتهجوا هذا النهج، ويوجد أوروبيون من بلاد متقدمة جدا، يعيشون في أدغال إفريقيا، برغباتهم أيضا.

روبرت ج، أعجبني، اعتبرته شخصية فريدة تصلح لملء صفحات متعددة من رواية ربما أكتبها ذات يوم، ولا شك أن الخيال سيلعب دورا مهما في بناء شخصيته، لا بد من ماض محير، وكوابيس ومنغصات، أبعدته من بلاده، وإذا احتسبنا الحرب الفيتنامية التي خاضها كجندي في الجيش، لربما كانت الكوابيس نابعة منها، وفقدان الأصدقاء والزملاء، وأشياء أخرى متعددة. هذه الشخصيات المميزة، دائما ما تصادفني، والحقيقة

أنني لا أتعمد كتابتها، لكن دائما ما أجدها تظهر ذات يوم، ومن تلك الشخصيات، كاتيا كادويلي الممرضة الفرنسية الجميلة التي عملت معي في شرق السودان كمنسقة للإغاثة، وعاشت بكل تحضرها في بلد بلا كهرباء، ولا بيئة صالحة للعيش، وأصيبت بالتهاب الكبد الوبائي، لتظهر بعد ذلك بما فيها، وبما تخيلته عنها، في رواية العطر الفرنسي.

أحبي روبرت ج.. الشخصية الجميلة، الغريبة، عازف الجيتار برتبة بروفيسور الذي يلتم حوله الأطفال، حين يعزف ويغني.. مديح الجمال في شوارع سايغون، وأطمح بالفعل أن يكون ضيفا على رواية مستقبلية.

عن القراءة

في حوار مع إحدى المجلات العربية، سئلت عن رأيي في القراءة، هل هي هواية أم عادة؟، هل يمكن أن تكون مثل كرة القدم، وجمع الطوابع، والمراسلة، تلك الهوايات الشائعة التي يمارسها الناس منذ الصغر، وتستمر مع بعضهم، بينما يقلع عنها البعض الآخر، في زحمة الحياة، أم تظل عادة يتعودها الشخص ولا يستطيع الإقلاع عنها مهما تقدم في العمر؟

رأيي أن القراءة ليست بالضرورة عادة أو هواية، وإنما تربية خالصة نتربى عليها منذ الصغر، وتصبح جزءا أساسيا من التكوين الروحي لنا، أي ليست كالهواية التي يمكن الإقلاع عنها تحت أي ظرف، ولا العادة التي ربما نضطر لتركها يوما، هي أعمق من ذلك كثيرا.

أذكر أننا كنا نعيش في مدينة بورتسودان الساحلية، وكان جزءا من

التربية لدى والدي أن نقرأ في كل أسبوع كتابا، أي حوالي الخمسين كتابا في العام، قانون صارم نشأنا عليه، وشارك في فرضه صاحب مكتبة اسمه رفعت، كان من أهالي مدينة سواكن القريبة من بورتسودان، وكان يملك مكتبة متوسطة في سوق المدينة، لكنه يربطها بكل ما يصدر داخل البلاد وخارجها، وكان أطرف ما فيه أنه يقوم بإيصال الكتب إلى المنازل، راكبا على دراجة نارية من ماركة فيسبا التي انقرضت الآن. تلك الخدمة التي لم تكن معروفة وأصبحت الآن واحدة من أهم الخدمات، ليست في مجال الكتب بالطبع ولكن في مجال الطعام. كنا نعرف الموعد الذي يأتي فيه رفعت، لا يطرق الباب، ويلقي بالكتاب المغلف في ظرف سميك من أعلى الحائط ويمضي، ونتقاتل جميعا على ذلك الكنز، من يقرأه أولا.. وعن طريق هذه الخدمة الفريدة، قرأنا في سن مبكرة مئات الكتب التي ربما لم يقرأها الآخرون إلا في سن متأخر.. تعرفنا على الأدب العربي والروسي والأوربي، وقرأنا في التاريخ والتراث العربي والإسلامي. وحين كبرنا قليلا، واقلع رفعت عن الحضور، ثم أغلق مكتبته وابتدأ في ممارسة نشاط تجاري آخر، لم نقلع عن القراءة أبدا، كنا نبحث عن بدائل، وعثرنا بالفعل على مكتبات أخرى وكتب أخرى وهكذا إلى الآن، بالنسبة لي ولإخوتي الذين عاصروا مكتبة رفعت المتنقلة، يعتبر تسوق القراءة، أهم تسوق لنا، نمارسه بانتظام، ونبحث في كل بلد نسافر إليه عن المكتبات أولا قبل مولات التسوق وحوانيت الأزياء.

لا أتفق مع الذين يقولون بأن التكنولوجيا الحديثة بكل ما قدمته من ترف، وتسلية ومتعة، هي التي سرقت جيل أبنائنا من القراءة، بأن أوجدت

له بدائل أشد جذبا، ذلك أن الشعوب الغربية التي اخترعت التكنولجيا، والمفترض أن تنشغل بها، ما زالت تقرأ بشره كل ما يصدر، وأشاهد دائما في موقع كبير مثل أمازون، كتبا لم تصدر بعد، وأعلن عن صدورها بعد عدة شهور، يتقاتل الناس على حجز نسخهم منها، حتى إذا ما صدر الكتاب بالفعل، تلقفه القارئ المشتاق وغرق فيه.

الذي حدث، أننا لم نخترع لأبنائنا صاحب مكتبة مثل رفعت، يأتي بالكتب حتى البيوت، ويتركهم يتقاتلون على قراءتها.

فك المربوط

وصلتني عبر البريد الإلكتروني، رسالة منمقة، وتشبه كثيرا، تلك السير الذاتية التي تقدم لجهات العمل، أملا في الحصول على وظيفة. كانت الرسالة من واحد اسمه الشيخ زكريا، يقيم في واحدة من العواصم العربية،.. يقول الشيخ في رسالته، إنه متخصص في (فك المربوط)، وإزالة السحر بأنواعه، وتزويج الآنسات، وحل المشاكل الزوجية، وتحسين أداء الطلاب في المدارس، وأيضا علاج (القولون العصبي) وأمراض المعدة والحموضة الناتجة من ضغوط الحياة اليومية، وإنه يقدم تلك الخدمات عبر الاتصال الهاتفي أو البريد الإلكتروني، أو اللقاء المباشر إن كنت أقيم في منطقة قريبة من مركز نشاطه، ويقبل الدفع بالفيزا والماستر كارد، إن تعذر التحويل المصرفي. وفي نهاية الرسالة أوصاني بتعميم تلك الأنباء السارة على أصدقائي، والرد على رسالته فورا حتى يتسنى له أن يدرج لي موعدا

في دفتر مواعيده المشغول لأشهر عدة... و لم ينس بالطبع أن يذكر بأنه الأفضل والأقل أجرا في ذلك المجال.

جلست لفترة أتأمل تلك الرسالة الزائرة لبريدي، فهمت فك المربوط وإزالة السحر، وتزويج العازبات، و لم أفهم أبدا إزالة الحموضة التي هي من اختصاص شراب (الموكسال)، وحبوب (الزنتاك) والإيمبرزول)، أو تأخر الطلاب في التعليم التي يتبناها اختصاصيون في النطق والتخاطب والسلوك النفسي، ولا دخل للتشيخ في حلها.

هذه الرسالة أو السنارة الصائدة، هي بالضبط ما يريده الناس في هذا الزمان.. الكل يحس بأنه مربوط بحبل ما وبحاجة لمن يفك ربطه، الكل يعاني ولا يفهم معاناته.. تزدحم العيادات والمصحات، ويخرج الناس بعشرات الأصناف من الأدوية ولا يتغير شيء، وقد فهم زكريا وغيره ممن يديرون محطات تلفزيونية فضائية لنشر الدجل، أو يستطيعون السباحة في الإنترنت، إن هذا هو هوى الناس ومرادهم، فاستغلوا التكنولوجيا لجني الأرباح.. وبالرغم من أن الأيام دائما ما تثبت إن هؤلاء الأشخاص ليسوا إلا صيادين في الماء العكر، إلا أن الناس لا يريدون تصديق ذلك وبالتالي يظل رزق (الهبل) متاحا عند المجانين.

في مقالة سابقة نشرتها في عكاظ السعودية، تحدثت عن السيدة (ميمونة) التي كانت تدير جلسات قراءة الطالع في مدينتي الساحلية، وتشد إليها العقول حين تدفن ماضيا أو تزين مستقبلا، وتحدثت عن الرجال الذين يشبهونها في فضائيات الدجل، وقد رد علي كثيرون طالبين

مني أن أكتب في مجال تخصصي.. أي الثقافة بعيدا عن معتقداتهم، ناسين أن الكاتب يجب أن يظل عينا تراقب المجتمع.. تشيد بتطوره، وتنبش في التخلف ساعية إلى دحره. ولن تكون ثمة قامة لكاتب لا يدلي برأي.

تجرعت جرعة كبيرة من شراب الموكسال وأنا أفكر في رسالة الشيخ زكريا.. زالت الحموضة على الفور.. لكن كم يائس بحموضة أكبر سيصمد.. قطعا هناك آلاف الإتصالات تجرى ومئات الرسائل الإليكترونية ترسل.. والهوس يظل هوسا.. بلا دواء.

كرسي القلق والطمأنينة

في أول يوم لي من أيام العمل في مستشفى بورتسودان الساحلي، في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، كنت مرتبكا بشدة، أجلسني الأخصائي بعد أن سلمته أوراقي على إحدى الطاولات في العيادة المحولة للأمراض الباطنية، وطلب مني رؤية المرضى، ووصف العلاج لهم، واستشارته حين يواجهني أمر معقد. كنت أتطلع إلى الكرسي المخصص لجلوس المرضى عن يميني، أحاول قراءة تاريخه من خلال لونه الذي كان أبيض وأسود بياضه، قوائمه التي لا بد كانت ثابتة يوما، وأراها قد انحنت، وأتخيل أولئك الآلاف الذين جلسوا عليه ذات يوم، فتم شفاؤهم أو لم يتم. فجأة جاءني أول مريض حقيقي خارج كتب الطب ليجلس على ذلك الكرسي ويهتز الكرسي بجدارة تحت ثقله. وكان مريضا معقدا بحق. كان سجينا من نوع خطر بلا شك، مقيدا بالسلاسل في

يديه وقدميه، ويتبعه سجان يربط سلاحا في خصره، وكان طويلا وعريضا ومشوه العينين، وثمة خاتم كبير من نحاس متسخ، يضغط بشدة على أحد أصابع يده اليسرى. لم يكن مفتتحا عظيما لمهنة عظيمة كما كنت أظن ويظن كل الذين لا يعرفونها، وكان إرباكا لي وللكرسي الذي برك بالفعل، وهو يحاول تحمل الرجل. كان ذلك المريض السجين، هو عبود النور، ويلقب بعبود بهجة ولا كانت ثمة بهجة كثيرة أو قليلة، تبدو على وجهه أو صوته الخشن حين عرفني بنفسه وقص حكايته. قاتل لامرأة استيقظت مذعورة في منتصف الليل على صوت حركته في بيتها وكان يلم أساورها ومالها وملابسها، في حادثة سرقة عادية، تحولت في لحظة إلى جريمة قتل، خنقها بيدين ثابتتين، وأكمل مهمته وذهب، رجل ميت في حكم القانون، حوكم وأدين وأصدر قرار إعدامه شنقا، ويحيا بتعاطف الأطباء أو خوفهم، و لم يجرؤ أحد منهم طوال عامين على توقيع ورقة فيها جملة: تم شفاؤه من قرحة المعدة، حتى يساق إلى الحبل. وضع جليس الكرسي قصته أمامي ووضع السجان ورقته، وتطلعا إلي، وكان لا بد من فحص سريري ومخبري كان كله سلبيا. في ذلك الصباح انهزم عبود بهجة بجدارة وانتصرت على خوف اللحظة الأولى في تلك المهنة الشاقة.. كانت الورقة موقعة من دون استشارة الأخصائي حتى، وكان آخر يوم لعبود بهجة في المستشفي الساحلي ليذهب إلى مصيره.

وعلى مدى سنوات بعد ذلك، تعاقبت الكراسي عن يميني، وتعاقب شاغلوها، لكل مريض قلقه الخاص وطمأنينته الخاصة التي جاء يبحث عنها، وكانت تلك الكراسي في أغلبها من بلاستيك مهترئ، أو خشب

مصبوغ بلا فن، بعضها محلي الصنعة في ورش رخيصة، وبعضها مستورد من بلاد تورد الوسخ للعالم الثالث، تحس بخوفها حين يجلس عليها مريض مصاب بمرض معد أو مرض بلا شفاء، باضطرابها حين يجلس حاملو الوسواس القهري والاكتئاب والشيزوفرينيا، برغبتها في الفرار حين يشغلها الثرثارون الذين يحكون عن أمراضهم بترف متقن، مستخدمين لغات مجروحة وآهات، وكم من مرة أحسست أن الكرسي قد انتعش وتنفس بارتياح وهو يحمل على ظهره غادة هيفاء، جلست برفق.. وفي إحدى السنوات، وكنت أملك عيادة في حي شعبي، وعن يميني كرسي مسكين ظل خاليا لثلاثة أشهر، منذ افتتحت العيادة، لم يهزه أو يطربه أحد، جاءني أحد المواطنين الذين هاجروا إلى كندا واكتسبوا خاصية أنهم يعيشون في بلاد متحضرة ويأتون من حين لآخر بحثا عن الجذور. أول ما لفت نظره في العيادة كان ذلك الكرسي، وكان من الحديد ومنسوجا ببلاستيك أزرق، وقام صبي من أبناء حارس العيادة بتمزيق حباله البلاستيكية بموسى حادة و لم يكن ثمة مال لإعادة إحيائه وهكذا تركناه ممزقا وبائسا، ولا نتوقع إطلاقا أن يزورنا كندي كان في الأصل مواطنا بلا دوافع تجعله ينتقد كرسيا في عيادة طبيب. في ذلك اليوم شتم كرسي العيادة بلا رحمة، ووضح لي المواطن الكندي بجلاء، إن الكرسي الذي يجلس عليه المريض، يمثل تسعين بالمئة من شفائه المحتمل، ولن يشف مريض جلس على كرسي معتل، كانت المرة الأولى التي أسمع فيها بتلك المقولة، وبأهمية كرسي غير متعلم ولا مثقف في آلية شفاء مريض. قال المواطن الكندي حاليا، إنه أحبط، ويحس بأن أعراض مرضه قد زادت،

ولن يعود مرة أخرى إلي وسيحرض الناس على عدم المجيء، ما لم أغير ذلك الكرسي، لكنني للأسف لم أغيره، تركته ممزقا هكذا، وحتى بعد أن بدأالمرضى يأتون ويحملهم على ظهره إلى أن قرر ذلك الصبي الذي مزقه من قبل، أن يستثمره في غفلة عن والده الحارس، وقام بالفعل باستبداله بقطعة حلوى لدى أحد البقالين الشعبيين في الحي، وأعاد البقال إحياءه بحيث أنني لم أتعرف عليه إلا بصعوبة، و لم أسع لاسترداده أبدا.

الكرسي الذي أحسست به قد تألم بالفعل، وبدأ يسب ويلعن، ذلك الذي جلس عليه إسماعيل في عيادة كنت قد افتتحتها بعد فشل عيادتي القديمة، وفي حي أشد فقرا من الأول. لقد جاء إسماعيل وهو سائق شاحنة قديم يتنقل بين الميناء والعاصمة، يشكو من ألم رجليه، في أعراض شخصتها مرض النقرس، داء الملوك الذي أصاب واحدا لا يقترب حتى من كونه رعية. كان الرجل لسوء حظ الكرسي، حكاء شفاهيا، صنع من أعراضه البسيطة دراما متكاملة استمر عرضها ثلاث ساعات كاملة، رج فيها الكرسي يمينا ويسارا، ضغطه للوراء وكسر ظهره، إلى الأمام وكسر أحد قوائمه، لم يهتم بضعف انتباهي الذي حدث وبأن الكرسي لم يعد قادرا على احتماله، وخرج في النهاية وقد أغلقنا العيادة بلا مريض غيره، وأيضا ناسيا أو متعمدا، ألا يدفع أجرة تلك الجلسة المؤلمة.

الآن تغير وضع الكراسي بلا شك، أو على الأقل تلك التي أتعامل معها، أصبحت محترمة، وقوية البنية ويكسوها جلد أسود، يجلس عليها المضطربون والخائفون، وأقوياء الأعصاب، وحاملو الأمراض المزمنة والمعدية، ويجرجرها الأطفال الأشقياء في طول العيادة وعرضها، ولا

تتأثر، حقا تغيرت في الصناعة وتغيرت معنوياتها، لكنها تظل في النهاية كراسي استثنائية، لا تشبه الكراسي الأخرى.

ما قبل وبعد الربيع العربي

نظرة على الإبداع

هناك سؤال يطرح نفسه هذه الأيام بقوة، وطرح بالفعل في كثير من الملتقيات الثقافية، والحوارات التي أجريت مع المثقفين في شتى البلاد العربية، وهو نوعية الأدب الذي سيطرح بعد هذه المرحلة من التغيرات التي طالت عالمنا، بما سمي بالربيع العربي، بعد ركود طويل في ظل حيوات ساكنة، اكتست فيها الكتابة شيئا من ذلك السكون، أو تحدثت بصوت هامس لا يكاد يسمع. خوفا من تبعات صراخها لو صرخت. وكما يحدث في أزمنة الاستقرار، حتى لو كان استقرارا تعسفيا، تنشأ أبجديات معينة، تسير على نهجها الحياة، وفي مجال الأدب، استطاعت تلك الديكتاتوريات، بثباتها الطويل على أدمغة الشعوب، وحيواتها

اليومية، أن تخترع أبجديات راسخة للكتابة، لم يحد عنها أحد إلا نادرا، حتى تحولت الأعمال الروائية والشعرية، إلى ما يشبه التكرار الممل لمشاهد وحكايات، يستطيع كل كاتب أن يقدمها سهلة من دون عناء كبير. من أهم تلك الأبجديات: لا بد من رسم الفقر بشتى صوره، فقر الحياة اليومية، وفقر الروح، لا بد أن تكون الشوارع مغبرة، والبيوت مظلمة، والريح تعصف هنا وهناك، والتشرد في البحث عن سبل للعيش الكريم بالهجرة والاغتراب في البلاد البعيدة، لا بد من من وجود ظالم يظلم، ومظلوم يعاني، ونساء لبسن الثياب الشبقية، وتسكعن في الحياة المذلة طمعا في فرصة ما. وتأتي كتابة التاريخ الموازي، بمعنى كتابة تاريخ متخيل، يلقي بظلاله على الواقع المسيطر، ملاذا للبعض، هروبا من وطأة الحاضر. وللذين عذبوا بالفعل في سجون الرأي، أو سمعوا أن شخصا ما قد عذب، أو خيل لهم أنفسهم، أنهم عذبوا، آراء أيضا متطابقة وجدناها في كثير من الأعمال القصصية والروائية، وأعتقد أن مشهد إعدام عدد من البؤساء، على أيدي جنود قساة، وفاقدين للضمير في نيجريا، الذي بثته قناة الجزيرة في العام الماضي، برغم نفور العين منه، وازدياد ضربات القلب ساعة بثه، مشهدا عاديا وسهلا، ويمكن كتابته بمئة حيلة، في عهود الظلام.

الحقيقة أن ثمة طرحا جديدا في كل مرحلة من مراحل الشعوب عامة، سوى أكانت تلك الشعوب بدائية أو متطورة، طرح يتوافق مع المحيطات والمؤثرات التي استجدت، ويحاول أن يتقصى التبعات أو يؤرخ للحدث، وبعض ذلك الطرح قد يقفز إلى مرحلة التنبؤ بما سيحدث مستقبلا، فيصيب

حينا ويخطئ أحيانا، وقد ظهر بعد نكسة يوليو 1967، التي تعتبر واحدة من أكثر النقاط عتمة في ليالي الشعوب العربية، أدب قوي، خاصة في مجال الشعر، اتسم باللوم الشديد، والتحدث عن التقاعس، وذم الحماس الذي كان مجرد حماس بلا معنى، وطرح تساؤلات عدة، لم تجد إجابة إلا داخل المخيلة فقط، وأذكر من ذلك النوع ما كتبه نزار قباني، وأمل دنقل وصنع الله إبراهيم، وعبد الحكيم قاسم، وعدد من الكتاب والشعراء في الوطن العربي عامة، الذين اعتبروا النكسة طعنات وجهت لهم شخصيا، أشبه بطعنات الشرف، كذلك ما كتبه شعراء المقاومة الفلسطينية أمثال معين بسيسو، ومحمود درويش وسميح القاسم وغيرهم، وسار على هذا النهج، أدباء كثيرون في الوطن العربي العريض، وكان جيلنا نحن، والجيل الذي سبقنا في سبعينيات القرن الماضي، من الأجيال التي رضعت ذلك الأدب القوي، واعتبرته مرشدا لها في سكة الكتابة، فيما بعد.

الآن تمر الشعوب العربية، سوى تلك التي انتصرت في ربيعها بالفعل، مثل تونس ومصر وليبيا، أو تلك التي تسعى للنصر، ببذل المزيد من الدم يوميا، كما يحدث في سوريا، بمرحلة جديدة هادرة، أن يخرج صوتها جليا بلا همس أو تلفت حذر، وهي تطالب بحقوقها المشروعة، وتتعدى ذلك بأن تقوم بنفسها، بصياغة حقوقها التي تعتبرها فقدت ولا بد من استرجاعها، لصناعة تاريخ جديد، هكذا فجأة من دون أي مقدمات سوى تلك التي صاغتها الآداب الهامسة، أو التنبؤات الأدبية هنا وهناك، وما أشعله بائع خضروات شاب في بلدة تونسية، جرح في رزقه وكرامته، وانتصرت له الشعوب، وفي الحقيقة كانت تنتصر لنفسها. كان تعاطي

الاحتجاج، حتى داخل رواية أو قصة، أو قصيدة شعرية، ممنوعا حتى عهد قريب، وحتى مجرد الهمس بالاحتجاج، كان هناك من يعيد إنتاجه أمنيا، يحوله إلى صراخ وهتاف ضد السلطة، وكثيرا ما تعرضت الكتب التي ثارت داخل اللغة، أو فسرت بأنها ثائرة بسبب المخيلة الأمنية التي تتسع بشدة في أزمنة القحط، إلى كثير من القمع القرائي، والمنع من التداول، وحوسب كتابها على ذلك. وهناك أمثلة بلا حصر على ذلك، بل يوجد من مات من وراء قصيدة، ومن غاص في أقبية سحيقة من خلف رواية، لم يكسب من ورائها، سوى رضى ضميره الخاص.

لكن من مميزات تلك المرحلة هي أن ارتقى الأدب كثيرا برغم ما ذكرته عن سهولة مشاهده وحكاياته التي اخترعتها الديكتاتوريات، ارتقى موضوعا ولغة، وتطور من كونه أدبا مسليا إلى أدب ذي مشروع قومي كبير، يمكن لأي دارس في المستقبل، أن يعثر على ملامحه المشتركة بسهولة، في معظم البلاد العربية، تماما كما يعثر على إخوة داخل بيت واحد..

المرحلة الجديدة، مرحلة الربيع العربي التى مر عليها أكثر من عام، وما زالت تكتب في كتب التاريخ التي ستنشر فيما بعد، يتبعها بالطبع أدب جديد. هنا ليس ثمة اضطرار للتحدث همسا كما في الماضي، ولا ثمة اضطرار لكتابة اللافتات الخانقة داخل الصدور، وقراءتها بلا صوت في الظلام، وشاهدنا في الإعلام المرئي، تلك اللافتات تكتب يوميا بالحبر الواضح وتطوف في الشوارع مثلها مثل أي نشاط عادي، يمارس بعادية مطلقة، كالأكل والشرب والنوم.. وحشدت المدونات ومواقع التواصل

الاجتماعي بالكتابة التي تضع النقاط على الحروف، وتصل إلى كل متلقي بلا (فلترة).

ما حدث طوال هذا العام، في الشأن الكتابي، كثير جدا، وما أتوقعه شخصيا، كثيرا أيضا، وهذه الأجيال الجديدة التي حملت على عاتقها مهمة إيقاظ صمت آبائها من رقاد طويل، واستعادة حقوقهم الضائعة، قادرة أيضا على إنتاج أدب جديد، ربما اتسم بالحماسة، والنزعة التغيرية الجادة، وكتابة الأشياء كما هي. أيضا أتوقع ذلك في السينما والدراما التلفزيونية، سنقرأ روايات واقعية صرفة، بعيدا عن خيال الكتابة، سنشاهد أفلاما، تتحدث بصوت جهوري، وقد بدأت بالفعل تخرج روايات تؤرخ للثورة التونسية والمصرية، والثورات الأخرى التي ما زالت تشتعل، وثمة مشاريع تكتب وتنتج يوميا في السينما والدراما، وسمعنا شعرا جميلا، لا يشبه الشعر القديم، شعرا يتحدث بصدق وطلاقة، ويسمي الأشياء بمسمياتها.

ما أخافه في كل ذلك، هو أن يحدث انفلات كتابي، بمعنى أن تعم الفوضى المرتكزة على الحماس، فنا جميلا اسمه الإبداع، أن يتخيل حامل راية كتب عليها عبارة: ارحل، في ميدان التحرير، أنه امتلك موهبة الكتابة، ويكتب ما لا يمكن أن يسمى كتابة، أن يتخيل هتاف عالي الصوت في حمص، وهو يصرخ خلف جنازة شهيد، وحامل سلاح كلاشنكوف، في طرابلس التي حررها السلاح والحماس، أنه أحد الروائيين الجدد، الذين ولدوا بولادة الربيع العربي، وبالتالي لا يصبح الخيال وقودا ضروريا للكتابة الإبداعية، ونعرف أن الخيال هو وقود الكتابة الجيدة، ولطالما استمتعنا بذلك الخيال، في قراءتنا للروايات والقصص، وقصائد الشعر.

مملكة ليونج تول

من الهوايات الغريبة التي مارستها أثناء وجودي في كوالا لامبور، كان التردد على مركز للعلاج بالإبر الصينية والأعشاب التقليدية، يملكه الماستر ليونج تول، ويديره بمعاونة عدد من النساء والرجال، فيهم صينيون وماليزيون، وواحدة اسمها روزا تبدو لاتينية أمريكية، وترتدي أزياء من اختراعها كما يبدو، حيث لم أرها على جسد آخر من قبل أبدا. كنت في ترددي على ذلك المركز، أحاول الاقتراب من تلك الطقوس العلاجية القديمة، نوعا من المعرفة التي تساعد في الكتابة الروائية، وتدور في ذهني شخصية معالج صيني تقليدي، لن تنكتب ناضجة إلا إذا كان طقس امتصاصها مكتملا، وما زلت أصر على ضرورة الاحتكاك المباشر بالشخوص، لننتج أدبا يمثل تلك الشخوص. فليست معرفة القراءة وحدها تكفي.

كان المركز العلاجي، يقع في واحدة من البنايات الضخمة في وسط المدينة، والتي يطلق عليها محليا، اسم المنارات، وما أكثرها في مدينة تخصصت فيها، وكانت سباقة ببرجيها التوأم الذين ما زالا يسيطران على انبهار السواح من كل بقعة في الأرض. شاهدت في مملكة ليونغ تلك، أشخاصا لم أكن أتصور أن أشاهدهم يوما هناك. أشخاصا من كندا وأمريكا وبريطانيا واليابان وكوريا ومعظم بلاد العرب وإفريقيا، جاءوا يبحثون عن أمل كما يبدو في علاج أمراض مزمنة، عنيفة، ووقحة، مثل السرطان وتليف الكبد وضمور العضلات، وتشوه العظام، وحتى الاكتئاب النفسي وانفصام الشخصية، وشاهدت امرأة من جزر الكاريبي، تضخم وجهها بفعل سرطان الجلد حتى صار عدة وجوه، تمتد حتى صدرها، وما زالت تملك الأمل، تتعاطى الإبر في كل بقعة من وجهها المتمدد، وتتجرع شراب الأعشاب في صبر. كان ليونغ تول صينيا تقليديا في هيئته، لكن خفة ظله ساعدت كما يبدو في انتشار سمعته، وإنه يدير الآن بنجاح مركزا عددته تجاريا، أكثر من كونه علاجي.. لا تهاون في الدفع المقدم، لكن مع خفة الظل والابتسامة، وهيئة روزا المخترعة وأزيائها الغريبة، يدفع المستشفون عن طيب خاطر. وكأن ليونغ تول، أراد لمشروعه الكبير أن يمتد إلى ما بعده، حيث تجد امرأته تعمل بجانبه، وعدد من أبنائه الشباب، يتدربون على وضع الإبر في أماكنها، ونزعها حين تكتمل المدة المفترضة لبقائها في الجسم، ويأتي بعد كل عدة أيام، مصورون وصحفيون، يجرون حوارات مطولة مع الماستر، الذي يتحدث عن فتوحاته في علاج الأمراض المستعصية، ويأتي متطوعون، أغلبهم آسيويون، ليسردوا أمام الكاميرا،

كيف أنهم شفيوا من أمراض عدها الطب بلا شفاء، ولكي أقترب أكثر، حاورت ليونج عدة مرات عن نشاطه، وأذهلني بمعرفته التامة بتشريح الجسم، ووظائف غدده وأعصابه، وأن كل إبرة تنغرس في مكان، لا بد أن يكون مكانها الصحيح.

أظنني شربت ذلك العالم الغريب جيدا، ليس بجرعات قليلة ربما تتوفر في الكتب، ولكن بجرعات عالية جدا، وإذا حدث وأن كتبت معالجا صينيا، داخل نص روائي، كما أخطط لذلك، فمن المؤكد إنه الماستر ليونج تول، صاحب مركز تول للطب الصيني الكائن في إحدى منارات كوالا لامبور.

نصوص وقراء

لا شك بأن رأي القارئ لأي نص شعري أو روائي، يعد عند الكاتب من الأشياء المهمة، وبالتحديد من الأعمدة التي ربما ترتكز عليها كتابته بعد ذلك، بالرغم من أن بعض الكتاب يتعالون على القارئ، ولا يهتمون بآرائه، ناسين بأنهم يتوجهون إليه وحده, ولولا وجود قارئ ما وجدت الكتابة أصلا. وقد سعدت كثيرا بظهور أجيال جديدة من القراء المحنكين، يمكنها أن تشارك الكاتب خفقاته وانفعالاته. وتتعمق في نصه بعيدا، وتخرج بأشياء ربما لم يكن الكاتب نفسه يستطيع استخراجها لولا هؤلاء القراء. الآن توجد على الإنترنت، مئات المواقع التي تشجع على القراءة، التي تساهم في توزيع الكتاب، فالذي تعجبه رواية أو مجموعة شعرية، لا يحتفظ بإعجابه داخله، وإنما يبثه لأصدقائه ومعارفه، الذين يسرعون باقتناء الكتاب، ويتحدثون عنه بعد ذلك.

منتديات القراءة تلك، أصبحت تقوم بمهام المقاهي الثقافية التي كانت سائدة فيما مضى، وقد جلست في العديد من تلك المقاهي أيام بداياتي في مصر ورأيت كيف كان الناس يبدون آراءهم في الكتابة، وكيف أن كتابا مغمورا، سطع فجأة وسطا على الذهن القارئ، لأن عدة قراء مهمين، تحدثوا عنه باحترام، ومن تلك الكتب كما أذكر، رواية العطر للألماني باتريك زوسكيند التي تتحدث عن صانع العطور القاتل في بحثه عن عطر إنساني، ورواية عالم صوفي التي تتحدث عن تاريخ الفلسفة، وكثير من الروايات العربية الجميلة التي ما كان لها أن تنتشر كل ذلك الانتشار لولا وجود من قيمهاانطباعيا، بعيدا عن تعقيدات النقد الأكاديمي.

من تلك المواقع الحافلة بالنشاط القرائي، موقع (جود ريدز) وتعني القراءة الجيدة. كل قارئ يمكنه أن يسجل حسابا في ذلك الموقع، يمكنه أن يضع قائمة بالكتب التي قرأها أو يريد قراءتها، أو التي أوصى بها أحد أصدقائه. يمكنه أيضا أن يضع رأيه في الكتاب بلا تردد، ويشارك الآخرين آراءهم فيه، وفي النهاية يمكنه أن يقيم الكتاب باختيار نجمة أو نجمتين أو حتى خمس، حسب رأيه.

ولأن القائمة الطويلة أو القصيرة من جائزة البوكر العربية، تعد موسما خصبا للقراءة، بتنويهها للكتب المختارة، فإن القراء دائما ما يمنحونها أولوية خاصة، يضعون القائمة، ويبدأون في تشريحها، وربما منحوا احترامهم لرواية دخلت القائمة الطويلة، وخرجت، وعدم احترامهم لرواية وصلت حتي القائمة القصيرة، أو حتى نالت الجائزة الكبرى.

لذلك وإيمانا مني بضرورة القارئ الذي أعتمد عليه في تقييم نصوصي وضعت على غلاف الطبعة الثانية من روايتي صائد اليرقات، جنبا إلى جنب مع تعليقات النقاد، تعليقا لقارئة اسمها زهرة، ربما ستفاجأ لو عثرت عليه، لكنه حقها بكل تأكيد، أن يهتم بها الكاتب كما اهتم بالنقاد المساندين لعمله، فهي وكثيرون غيرها أعمدة أساسية في الارتقاء بالعمل الإبداعي، وأنوى مستقبلا أن أملأ أغلفة الخلفية لرواياتي بآراء القراء سلبية كانت أو إيجابية.

يميني أم يساري؟

مسجد الشيخ (قريب الله) بأمدرمان.. عصر أحد أيام شهر سبمتبر، ثمة جو من السحر والغرابة يرسمه الضريح المغروس بإتقان، والمسجد الذي بني برحابة وسعة صدر، ومجهود كبير، فوقف شاهقا وعظيما. كانت المناسبة عقدا للقران تزف فيه إحدى قريباتي إلى ذلك القفص المذهب، لبيته كضرورة اجتماعية، وكنت منشرحا، تلك أجوائي التي أعشقها.. التقي فيها بوجوه سيرة الوجع، ووجوه سير أخرى لابد أكتبها في يوم من الأيام، ومنذ كتبت روايتي الأولى (كرمكول) غذيتها بعبق تلك الأجواء، ومازالت تمسك بكتابتي إلى الآن.

كان الطقس يأخذ مجراه.. مأذون بدفتر وقلم وصوت متزن.. ووكيل وموكل، وشهود ومئات من العمائم والجلابيب.. تنظر وتنتظر.. هي أيضا

أجواء أستاذنا الطبيب العظيم (توم حامد)، الذي علمني الكثير في قسم النساء والتوليد، في مستشفى بورتسودان.. كانت عقود القران جزءا من ممارساته الحياتية.. يستلف الوقت من مشاغله العديدة ليحضرها، ويضيف إلى طقسها الرسمي طقوسا من عنده.. ولولا رقدته الساكنة الأخيرة، لظننتني أراه وسط تلك العمائم والجلابيب.. كنت من القلائل الذين أتوا (متفرنجين)، فمنذ أن نما شاربي وأنا أحاول أن أضع العمامة على رأسي، فأجدها لا تشبه عمائم الآخرين، جربت أقمشة (الكرب)، و(التوتل) و لم أفلح.. ففضلت الحياة متفرنجا، ولكن بدم أصيل. وفي مغتربي البعيد حين تحدث مناسبة كتلك، أبحث عن صديقي البروفيسور (محمد عبد الكريم)، الذي قضي خمسين عاما يحاول لف العمامة على الرأس و لم ينجح أيضا، فصادقني صداقة (مناسبية) تجلسه إلى جانبي، وتنتهي حين تنتهي المناسبة.

(زوجت موكلتي من موكلك..)

قبلت زواج موكلي من موكلتك..)

واقترب مني أحدهم.. كان أحد الذين التقيتهم منذ أيام، التقيته لثلاث دقائق فقط.. عرف فيها الكثير عن طبي، واغترابي، وعيالي الذين أنجبتهم، و لم أنجبهم، وشاهد صوري في الصحف بمناسبة زيارتي للبلاد. كان ستينيا بنضارة خمسيني، نحيفا ومتماسكا، وتغيظني عمامته بتلك (اللفة) المتقنة، أمسكني من يدي، وجرني إلى خارج الطقس قائلا: عن إذنك.

انسقت خلف الرجل خارجا من الطقس.. ومتكئا على جدار بعيد..

كنت مستغربا من تلك الحاجة الملحة التي اضطرته إلى قطع استمتاعي وجري إلى ذلك الحائط البعيد:

سؤال.. لو سمحت، هل أنت يميني أم يساري؟

كان سؤالا مدهشا وغريبا، وخارج النص (التفكيري) الذي وضعته، ولا يتوقعه الضريح الذي كان يرقبنا، ومأذون العرس، والموكلون، وشهود عقد القران، وسائقو عربات (الركشة) العابرون، ولا حتى أمن المطارات، وحراس الحدود، ولو كانت شكوى من صداع أو مغص، أو جرح في القلب لتقبلتها.

كنت الآن خارج الطقس بمرارة، أتأمل الرجل وأندهش، وأنصرف خارجا من عينيه، ومن الطقس كله.

مساء اليوم نفسه وفي خيمة مزركشة، تحمل العرس، و(المعاريس)، والعشاء (الكوكتيل)، وعطور النساء وزينتهن، وتثاؤب الصغار، وصراخ آلات الإزعاج، وصوت أحد المغنين الجدد.. (دارا ما داري أنا مالي بيها.. البلد الما بلدي ما بمشي ليها)، أحسست بيد ستينية تدق على كتفي، وصوت صارخ يخترق إزعاج الطرب.. لينتشلني منه:

لم تجب على سؤالي يا دكتور.. هل أنت يميني أم يساري؟

الأعمال المنشورة، هل يمكن أن تكتب من جديد؟

منذ فترة قليلة، أعدت قراءة رواية صغيرة لي اسمها عواء المهاجر، كنت قد كتبتها منذ إثني عشر عاما، ونشرت بطريقة سيئة لدى دار محلية، وخطرت ببالي فكرة غريبة لكنها ليست جديدة، انطلقت من تقييمي الشخصي للنص، بعيدا عن أي دراسة أو مراجعة تمت للرواية.

لماذا لا أعيد كتابتها مرة أخرى؟

ما انطبق على نصي عواء المهاجر،ونصين آخرين لي غيره، ينطبق على أعمال كثيرة لكتاب آخرين، من أجيال شتى، لا بد انتبهوا لما انتبهت إليه، وأحسوا أن بعض النصوص التي كتبوها في زمن الصبا، وبداية تعلقهم

بالكتابة، تبدو الآن نقاطا معتمة في مسيرتهم التي طالت بعد ذلك، وربما تمنوا لو أنها لم تكتب أصلا، أو خطرت ببالهم نفس الفكرة التي خطرت لي، أن يعيدوا الكتابة من جديد، بأدوات العمر التي اكتسبوها، وتجرأت تلك الأدوات على إبداعهم القديم، وتعالت عليه بصورة سافرة. ليس الموضوع مرتبطا بالأفكار التي ما زالت موجودة بكثرة، ويمكن العثور عليها في أي زمان ومكان، ولكن موضوع الأسلوب نفسه، ذلك الجسر الذي من المفترض أن يكون معبدا، وبلا عوائق أو حفر حتى تعبر عليه الأفكار إلى متلقيها.

في بداية الكتابة، وحين يكتشف الكاتب موهبته، ويبدأ في صياغة عمله القصصي أو الروائي، غالبا ما يخترع أدوات للزهو ليست موجودة في الواقع، غالبا ما يعشق نصه، ويهيم به بجنون، ويطارد كتابا سمع بهم أو أصدقاء يعرفهم من أجل أن يسمع جملة تزيد هيامه اشتعالا، وتأتي مسألة النشر الصعبة، والتي يخوضها راضيا، متحملا كل جروحها، حتى يرى النص مطبوعا، وينتظر آراء متخيلة من نقاد وقراء، وغالبا ما يطول الانتظار. وإذا ألقينا نظرة على النصوص الأولى، فهي في الغالب تنطلق من دوافع عدة، منها التوغل في التجريب، سوى من ناحية اللغة أو التقنية، من أجل التباهي بصناعة نص جديد، لم يكن مطروحا في سوق الكتابة من قبل، ومنها تهيج الصبا في رصد عورات المجتمع وذنوبه، وكتابة نصوص متلصصة، لا ترتقي بالكتابة في أحيان كثيرة، وربما تضرها، ولكن ربما عثرت على قارئ يشارك كاتبها انفعالاته، ويتواصل معها بطريقة أو بأخرى، ومنها إعادة إنتاج تجربة لكاتب نضج وانتهى، بطريقة ربما سلبت

التجربة الناضجة رحيقها وشوهتها، ويصر الكاتب الجديد الذي أنتجها، أنها تجاوزت ما أنتجه سابقه. ولأن التواصل بالعالم كله لم يعد صعبا، بسبب تقنية الاتصالات الحديثة، ويمكن حتى لكاتب أو شاعر يقيم في قرية (أم كدادة)، في أقصى غرب السودان، أن يتواصل مع بن جلون وأمين معلوف، وجمال محجوب، تلقيت خلال العامين الأخيرين، ما يزيد على السبعين مخطوطا، من أدباء مبتدئين، لم تخل كتابة معظمهم من تلك الدوافع التي ذكرتها، كانوا يريدون رأيا أو مقدمة، أو كلمة على الغلاف الأخير، لمجرد الدعم، وبعضهم صادر رأيي قبل أن أبديه، وكتب صراحة، إن منجزه هذا لا يشبه أي منجز آخر، وإنه صاحب مدرسة كتابية، سيبرهن المستقبل القريب على متانة بنيانها، وسيدخلها تلاميذ شتى يطوفون بشعلتها في كل مكان.

في تصفح سريع لبعض تلك الأعمال، تذكرت ما ذكرته في البداية عن اختراع أدوات للزهو لا مبرر لها، تماما مثلما فعلنا في البدايات، وأن هذه المخطوطات، لو تركت على نار العمر، وبهرت ببهار الزمن الكفيلة بإطفاء جذوة الزهو، وجر الموهبة لتمريغها في وحل التجارب، لما كتبت أبدا بهذه الصورة، ولفكر منتجوها بإعادة إنتاجها مرة أخرى بعد أن تتسع التجربة.

لقد خاض بعض الكتاب مسألة إعادة أعمال منشورة، ولا أعرف حجم الرضا أو القناعة التي وصلوها إليها بعد أن نشروا النصوص المعدلة، من أولئك الكاتب المخضرم إدوار الخراط، الذي أعاد كتابة روايته محطة السكة الحديد، ربما لأنه أحس بها ابنا عاقا وسط نصوصه الأخرى البارة،

وربما لأن أفكارا ما، خطرت بباله بعد ذلك، واستوجب أن يكتبها في نص مكتوب سلفا، لأنها تلائمه. لقد قرأت محطة السكة الحديد المعدلة، وأحسست بها متاهة سردية، صعبة على التلقي، وصعبة على الإدلاء فيها برأي، لكن قطعا أقل تبجحا واستفزازا للقارئ، من النص الذي كتبه في البدايات.

في ذهني رواية مثل السيد الرئيس لكارلوس فوينتس، رواية عظيمة في أفكارها وصراعاتها وهياجها، وتناولها لآليات القهر التي لم تختف أبدا من الشعر أو السرد الروائي في العالم كله، برغم الثورة الحضارية التي عاشها العالم، باعتبارها موضوعا أزليا يكتب في كل جيل، ويتطور بتطور تلك الآليات نفسها. ما أراه في تلك الرواية، صعوبة أسلوبها، وانحيازها للتجريب في كثير من أجزائها، من ما يدفع للملل وربما تركها من دون إكمال. هذه الرواية لو أعيد إنتاجها بعد سنوات من كتابتها، لربما دخلتها متعة القراءة من أحد أبوابها المتعددة، ولما ظلت هكذا مرهقة لذهن القراءة. أيضا في ذهني رواية مثل عرس الزين للراحل العظيم الطيب صالح، رواية شديدة البساطة والإمتاع، كتبت في نهاية الخمسينيات، أو في بداية الستينيات من القرن الماضي، واحتفت بمجذوب من مجاذيب القرى في شمال السودان، في تجلياته وبؤسه وارتباطه بالتراب والمرأة، وكانت من الروايات الأولى التي تطرقت لهذا الموضوع الذي طرق كثيرا بعد ذلك، ما أراه هو أن الرواية كانت مختصرة وزادت من جوعي كقارئ لم يشبع، ولو أعاد الطيب كتابتها بعد ذلك لربما أضاف لها بهارات جديدة، ووسع من مائدتها الغذائية، بحيث تشبع جوع القراء كلهم.

ولأني من معجبي التركي أورهان باموق، ومن متابعي تجربته في الكتابة، حتى في مقالاته النقدية والتي يتحدث فيها عن تجربته، وأصدقائه وزملائه وأسفاره ومصادر وحيه، كان من الصعب علي أن أحيل رواية مثل الحياة الجديدة، لنفس الكاتب الذي أنجز ثلج، واسمي أحمر بعد أن تمرغ في سكة الكتابة. الحياة الجديدة، متاهة بلا علامات إرشادية تخبرنا أين نستريح وأين نلتقط أنفاسنا، وكيف سنعبر باقي الصفحات بلا إحساس أننا نؤدي واجبا، بعكس ثلج واسمي أحمر، اللتين برغم عدد صفحاتهما الكبير، تملكان يد الرأفة بالقارئ، وتضحكانه مثلما تبكيناه، وفي بنيانهما كثير من النوافذ التي تضج متعة.

أخيرا أضيف شيئا إلى موضوع إعادة الكتابة، أقول أن الفكرة برغم أنها قد ترضي الكاتب شخصيا، لو استطاع أن يطبقها، إلا أنها قد لا ترضي القارئ الذي عرف نصا معينا، وصادقه بحسناته وعيوبه، ويفاجأ به منتجا من جديد، خاصة في ما يتعلق بمصائر الشخوص في النص، إنها نفس المصائر الحقيقية التي لا يمكن تعديلها أبدا، وشخصية مثل الإثيوبية أببا تسفاي في عواء المهاجر، من الأفضل أن تكتب في رواية أخرى بمواصفات جديدة.

كتابة التاريخ روائيا

لعلنا لاحظنا، سوى في رواياتنا العربية، التي ننتجها من بيئتنا الخاصة، أو تلك التي تأتي إلينا مترجمة من نتاج شعوب أخرى، ما أسميه بالطلب المكثف للتاريخ، لإعادة إنتاجه روائيا، في أعمال بعضها دعمته الوثائق التاريخية الحقيقية، وبعضها متخيل صرف، يحاكي التاريخ، ويصنع دربه الخاص الذي يمكن أن يكون تاريخا بالفعل، في ذهن القارئ، لو أجيدت كتابته. ولأن في التاريخ عوالم مخبأة دائما، وربما تكون أكثر إدهاشا من عوالم متوفرة في الزمن المعاصر، فقد خلق ذلك النوع من الكتابة، مبدعيه المخلصين، وقراءه الذين يفضلونه على كتابة الحاضر، ويسعون إليه دائما، ولا عجب إن نجحت روايات تاريخية كثيرة، وتحول بعضها إلى أفلام درامية، كان لها جمهورها أيضا.

ولقد وضح بعض النقاد، من وجهة نظر نقدية طبعا، الفرق بين نوعي الكتابة التاريخية، أي تلك التي يتخيلها الكاتب، ويعتمد فيها على حقائق مخترعة، وتلك التي يعتمد فيها على حقائق ثابتة، لا يمكن تغييرها، حتى لو أنتجت إبداعيا، كأن يعيد أحدهم إنتاج شخصية مثل أدولف هتلر، ويغض الطرف عن ما سجله التاريخ في حقه، أو يكتب آخر عن معركة شهيرة، حدثت في يوم ما، وينسى الذي أشعلها، والذي انتصر فيها أو انهزم، أو يتصدى لثورة الزنج المعروفة، وينسى علي بن محمد.

أعتقد شخصيا، إن الرواية الحقيقية عموما، الرواية التي يمكن وصفها بالعظيمة، ذات طبع متمرد، وتأبى باستمرار أن تلتصق بالواقع المعيش، إلا في جوانب محددة، هي خاماتها الأولية التي تمنح الإيحاء فقط، هي تبني واقعها الخاص الذي يأخذ من الواقع الصرف، وأيضا من الخيال المتأجج في ساعات الكتابة، وبالتالي تنتج الصيغة الجمالية والمعرفية المطلوبة، وأيضا تشرك القارئ المتابع، في حوارها اللاهث حتى النهاية. ولو كانت الرواية تاريخا صرفا مستندا على وثائق ومخطوطات حقيقية فقط، من دون إضافات أخرى، لما شدت سوى دارسي التاريخ، الذين قطعا سيعثرون على معرفة أوسع، لو قرأوا الكتب التي هي تاريخ صرف، صيغ بأقلام مؤرخين، وباحثين، ولما احتاجوا لعمل إبداعي حتى يدرسهم. ولذلك نجد في معظم الكتابات التي أرخت لشخصيات معروفة، أو رصدت تغيرا حدث في مجتمع ما، في زمن ما، إنها برغم وجود التاريخ الحقيقي عائقا أمام سهولة الكتابة، إلا أنه توجد ثغرات ما، دخل منها الإبداع، ووضع بصماته، وكلنا يعرف رواية الجنرال في متاهته، لجابرييل جارثيا ماركيز،

التي كتبها عن الجنرال سيمون دي بفوار، وكانت زخما ماركيزيا بديعا، شبيها بما أنتجه ماركيز طوال إقامته في قصر الإبداع الشامخ، وليست تاريخا صرفا لجنرال زعيم. أيضا ما كتبه الألباني إسماعيل كاداريه، وآخرون، استوعبوا الفرق بين الحكي والوثيقة، وأنتجوا أعمالا جيدة، بالرغم من أنهم، درسوا التاريخ بشكل متعمد، وأعادوا إنتاجه، وملأوا الحلقات المفقودة في النص التاريخي المفترض، مثل كتابة الناحية الإنسانية أو العاطفية لحاكم ما، وتحضرني هنا رواية المخطوط القرمزي للكاتب الإسباني الكبير، أنطونيو غالا، التي تصدت لشخصية (أبو عبد الله الصغير)، آخر ملوك الأندلس، فقد كانت رواية اعتمدت البحث، أكثر من اعتمادها على المتخيل، وبرغم ذلك لا تحس عند قراءتها، إنك تقرأ تاريخا صرفا، ولكن حكاية، صيغت بحرفية.

أتحدث عن النوع الآخر من الكتابة التاريخية، أي النوع الذي لا يعتمد الوثيقة، ولا يحفل بما كتبه المؤرخون كثيرا. هنا يمكن للروائي في هذا النوع من الكتابة أن يصنع مخطوطات خاصة بنصه، ووثائق هو من كتبها، وتحيل إلى تاريخ لم يحدث إطلاقا إلا داخل النص الذي كتب، ولكن يوهم القارئ بأنه تاريخ حقيقي. وفي الغالب نجد في هذا النوع من الكتابة، مدخل في البداية، يشير إلى وجود مخطوط ما اعتمد عليه الكاتب، وإنه لم يفعل شيئا، أكثر من إعادة نشر هذا المخطوط، وبالطبع هذا يدخل في نطاق الكذبة الإبداعية أو الشرك الإبداعي الذي ينصبه الكاتب للقارئ، وغالبا ما يحدث تأثيرا ما، وتوجد في أعمال التركي أورهان باموق، فخاخ من هذا النوع، لا تحس وأنت تقرأها، أنك عالق في شرك وهمي.

شخصيا، أميل لكتابة هذا النوع من الروايات، تلك التي تكذب إبداعيا، وتنسج الفخاخ الوهمية، لكن على الذي يود كتابة رواية من هذا النوع، أن يبحث في التاريخ أيضا، ولا يعتمد على خيال الكتابة فقط، من دون معرفة أكيدة بما يريد كتابته، ويتوقع أن يكون مؤثرا في يوم ما. على الكاتب أن يقيم لمدة طويلة، في أجواء الفترة التي يود صناعة تاريخ مواز لها، أن يعيش في الجو السياسي الذي كان سائدا، بكل حسناته وعيوبه، يعيش المجتمع كاملا وحياة الناس كلها، من لباس وطعام وشراب وبيوت يأوون إليها، وأحلام كانوا يحلمونها، وطقوس مارسوها، في أفراحهم وأتراحهم، ثم يكتب بعد ذلك عن حدثه المتخيل في ذلك الزمان، من دون مرجعية صارمة، ربما تفسد النص بصرامتها، وتقييدها للكتابة الحرة، إذا لم تكتب بحرفية. وأضيف أن ذلك الباب، يعتبر واسعا بحق، ويمكن أن تدخل عبره شخصيات يعرفها الكاتب من زمنه المعاصر، كما أن الإسقطات الحاضرة، يمكن أن تكتب بسهولة، ولا تجرجر كاتبها إلى متاهات بعيدة، كما لو أنها كتبت باعتبارها، أحداثا معاصرة. وأشير إلى رواية لي هي مهر الصياح التي كتبت في أجواء القرن الثامن عشر، واضطرتني للعيش عاما كاملا في سلطنة كانت موجودة في ذلك القرن، وكانت برغم كثافة الأحداث فيها، نصا يمكن تذوقه بسهولة.

لكن هل من الضرورة فعلا، أن نعيد إنتاج تاريخنا روائيا سوى عن طريق الحكي الوثائقي، أو الحكي المخترع، وتوجد في الزمن المعاصر، سكك كثيرة من سكك الكتابة، لم تعبد بعد؟

هنا أخاف أن أقول، أن ليس ثمة ضرورة ملحة، إذا ما تحدثنا عن الكتابة عموما وضرورتها الحياتية، لدى الشعوب العربية التي ما تزال تسيطر الأمية الثقافية، على قطاعات كبيرة منها، ويأتي الفقر، ليجعل مجرد التفكير في القراءة، ضربا كبيرا من ضروب العبث. هنا تتساوى الرواية التاريخية والمعاصرة معا، القارئ النادر هو من يحس بضرورة أن يقرأ كل ما يستطيع قراءته، والكاتب المسكون بهاجس الإبداع القدري، هو من يحس بضرورة أن يكتب إلى ما لا نهاية، سوى أن تابع تاريخا مدونا سلفا، أو اخترع تاريخا، أو كتب عن يومه الذي يعيشه، هناك مسائل كثيرة معلقة بين الكاتب وقارئه، أهمها، كيف يؤهل ذلك القارئ معيشيا أولا، ثم نطالبه بالقراءة.

الشخصية الموحية

في الفترة الماضية، عاد إلى الظهور مرة أخرى، شخص كان قد اقتحم حياتي منذ عدة سنوات، طاردني بالرسائل والمكالمات الضائعة، والبريد الإليكتروني، وفي النهاية، استوحيت منه شخصية (زيتون)، إحدى شخصياتي المؤثرة في رواية زحف النمل، أيضا، وأنا أشاهد مراسم دفن المغني السوداني الرائع نادر خضر الذي توفي إثر حادث مؤسف، وقعت عيناي على شخص آخر، كنت قد انبهرت به في ما مضى، أفردت له حيزا كبيرا في التفكير، وأوحى لي بشخصية حفار القبور، مشجع كرة القدم، التي كتبتها في رواية صائد اليرقات.

بالطبع لم أكتب هاتين الشخصيتين المؤثرتين، وغيرهما من الشخصيات التي ألتقطها في العادة من الواقع، بنفس مواصفات وجودها في ذلك

الواقع، ولا أعتقد أن غيري من الذين يكتبون الرواية، يفعلون ذلك، ولكن لا بد من تغيير ما، تطوير آخر أو مكياج كثيف، يخدم النص، ويدعم إتجاهات الكتابة ومغزاها، والغرض من وجود مثل تلك الشخصيات داخل النصوص، ولو صيغت الشخصيات كما هي في واقعها المعيش، لضاعت صفة الصنعة من الإبداع، ولأصبح مجرد رصد نثري عادي، أو توثيق يمكن أن يقوم به أي شخص لا علاقة له بالكتابة.

لكن كيف تكون الشخصية موحية؟

ولماذا شخصيات بعينها، تبدو مؤثرة، وتتقافز في ذهن الكاتب باستمرار حتى لو لم يكن يعرفها جيدا، خلافا لشخصيات أخرى، ربما يعرف تفاصيلها أكثر؟، ومع ذلك لا تأتي إلى الكتابة أبدا.

هنا لا توجد إجابة محددة، ولا أعتقد أن الكاتب يعرف بالتحديد، لماذا هذه الشخصية بالذات، وليست تلك؟

الكاتب بالضرورة شخص عادي في حياته اليومية، ربما يكون موظفا أو عاملا، أو حتى رئيسا للجمهورية، وتصادفه في تلك الحياة، عشرات المواقف التي تصلح للكتابة، يصادفه عشرات الناس الذين يردمونه بالحكايات، يسافر ويعود، ويحلم، وهو بالضرورة ملم بكل ما يحدث في عالمه العادي، وحين يجلس على طاولة الكتابة بضغط من نص يريد أن يكتب بعد أن تكتمل فكرته، يجلس بوصفه كاتبا، وهنا تأتي التقاطاته التي يسمح له بها النص، إلى الورق، من دون أن يعرف السبب، وربما يفاجأ في النهاية بأن شخصية عامل نظافة في أحد المطارات، شاهده للحظات،

كتبت بلا وعي منه، بينما شخصية جاره الذي اعتاد على طرق بابه عدة مرات في اليوم، لم تكتب ولا توجد نية لها لتكتب. وفي كتاب ألوان أخرى، للتركي أورهان باموق، الذي يحوي مقالاته التي كتبها لسنوات طويلة، عن عالمه وعالم الكتابة عموما، والكتاب الذين عرفهم وقرأ لهم، توجد كثير من الإشارات عن تلك الشخصيات الغريبة التي تتسلل إلى النصوص، وتؤثر فيها، وتلك القوية الجبارة التي تأبى أن تحتل عدة أسطر في نص، وحين قرأت سيرة غابرييل ماركيز المعنونة بعشناها لنرويها، والتي نقلها للعربية طلعت شاهين، عثرت على شخصيات كثيرة، بدت لي موحية بشدة، أذكر منها شخصية الخادم لدى أسرة الجد الجنرال، الذي اختفى لزمن طويل، وعاد في اليوم السابق لوفاة الجد ليشارك في جنازته، وكان الجد عند عودته بعيدا تماما عن الموت، ويجلس في صدر المائدة، يتناول عشاءه، لكنه مات بالفعل في اليوم التالي. هذه شخصية أسطورية، لكنني لم أعثر عليها ولا على غيرها من الشخصيات التي وردت في كتاب السيرة، في رواية لماركيز، من ما يدعم حديثي، بأن ليس كل ما يؤثر يمكن أن يكتب، وكل ما ليس مؤثرا، يبعد عن سكة الكتابة.

لو دخلنا إلى عالم المبدع الراحل الطيب صالح، الذي أعرفه جيدا، لعثرنا على شخصيات بعينها، استوحاها الطيب من بيئته التي خبرها، بيئة قرية (كرمكول) في شمال السودان، وإن كان قد طور من تلك الشخصيات، وبهرها بخياله الكبير، وصنع منها أساطير لم تكن كذلك في حياتها العادية. منها شخصية الزين، في روايته عرس الزين، وهي شخصية معروفة لدى ساكني القرية في ذلك الزمان، وشخصية التاجر

سعيد، وهي شخصية موجودة أيضا، وكثير غيرهما، لكن بالمقابل، نجد شخصية مثل إسماعيل الحكاء، كانت جديرة بكتابتها، لكنها لم تكتب. لقد كان إسماعيل حكاء عظيما، هكذا أصنفه، الرجل الذي تعرف مبكرا على إذاعة لندن، وبرامجها، والدراما التي تبثها، وسافر بعد ذلك ليعمل سائقا للواري السفرية بين العاصمة وشرق السودان، و لم يبرح البلاد قط، ومع ذلك كان يتصدر المجالس، يحكي عن صداقة جمعته بالممثل المصري عبد الوارث عثر، يحكي عن حوريات من الأردن والشام واستوكهو لم، بركن تحت قدميه، يتسولن حبه، عن حوارات أجريت معه في إذاعة لندن، بوصفه شخصية بارزة، وعن المخرج المصري الشهير الذي عرض عليه دور بواب نوبي في أحد أفلامه، ورفض بدافع الكرامة.

لقد شاهدت الطيب في إحدى السنوات، يجلس باسترخاء شديد، يستمع إلى حكايات إسماعيل التي تطول لساعات، ولا يقاطعه، وأيقنت تماما، أن الرجل لا بد سيظهر في رواية لاحقة للطيب، لكن ذلك لم يحدث قط، وهذا أيضا يدعم حديثي بأن ليست كل الشخصيات المؤثرة في الحياة، بالضرورة مشروعا لنص ما.

وفي تجارب شخصية لكتابة نص بحثي، أو نص قائم على شخصيات معروفة، لأسباب عدة، جمعت عشرات الصفحات والمعلومات، عن تلك الشخصيات، أو تابعت حياتها، إن كانت قريبة مني، وجلست لأكتب، و لم أستطع ذلك، ودائما ما أضرب مثلا بالآسيوي الذي يمشي عشرات الكيلومترات يوميا على قدميه، ويأتي إلى عيادتي، ليصيح بأن

قدمه مكسورة ولا يستطيع المشي. لقد صنفته بوعيي، شخصية أسطورية، صوته الغريب، ثيابه الملونة بشكل عنيف، ذلك الراديو متوسط الحجم الذي يحمله دائما، والحقيبة الجلدية الممزقة، التي لم تفارقه أبدا لمدة سبعة عشر عاما، والتي قام بفتحها ذات يوم، وكانت فارغة. لم أستطع كتابة تلك الشخصية، برغم كل ما ذكرته من إيحائها، ذلك ببساطة، أن لا نصا تشكل بداخلي عنها، وربما يأتي يوم لأجدها فجأة في إحدى الروايات، أو لا أجدها على الإطلاق.

إذن، أخلص إلى أن الكاتب لا يملك حقيقة شخصياته الموحية، ولا يستطيع أن يحددها سلفا، ويقوم بإعادة إنتاجها في نصوص، ليس كل كاتب بلا شك، لأن هناك كتاب يستطيعون ذلك، ولكن يستطيع القارئ المتمرس على القراءة، ملاحظة الخلل الناتج من كون تلك الشخصية، رسمت بعنف، و لم تترك لتأتي وحدها.

أقصى ما أتمناه، أن تأتي تلك الشخصيات التي أحببتها على الواقع، تأتي في نصوص، بسهولة، وأعتقد حقا بأنها خسارة كبيرة، أن يعبر ذلك الآسيوي غريب الأطوار، بكتابتي من دون أن يدخلها، وكذا آخرون بنفس المستوى من الغرابة.

الجوائز الأدبية.. من يمنحها؟

لا شك بأن الجوائز الأدبية التي كثرت وتشعبت في الوطن العربي، في السنوات الأخيرة، تعد انتصارا كبيرا للكتابة، خاصة أنها من المفترض أن تطول شرائح متميزة في المجتمعات، تنتج ما يمكن أن يسمى تنويرا، تحتاجه تلك المجتمعات بشدة، في أي فترة من فترات تطورها. جوائز في الشعر، جوائز في القصة، في الرواية، في المسرحية، وحتى في الخواطر العادية، التي يكتبها البعض، وترصد لها أحيانا جوائز، في كثير من الصحف اليومية.

ولأن هذه الجوائز الأدبية، ترف مستحدث في عالمنا العربي، بعكس الغرب الذي تعتبر من التقاليد الراسخة لديه، وجزءا هاما من ثراء ثقافته، وهناك جوائز عمرها عشرات الأعوام، مثل جائزة غونكور الفرنسية ومان بوكر الإنجليزية، وجائزة بوليترز والأورانج النسائية، ونالها مئات

المبدعين، على مر الأعوام، فإننا كما أعتقد، ما زلنا في صدد حضانتها المبكرة، قبل أن نصبح قادرين على التعامل معها بنضج ومسؤولية.

لكن، لمن تمنح تلك الجوائز حقيقة؟، وهل هي بالفعل تقديرا للإبداع والمبدعين، كما تردد شعاراتها التي جاءت تحملها، أم مجرد ميادين نزف، ترصف موسميا، ليتقاتل فيها المبدعون وغير المبدعين، وليس ثمة رابح حقيقي؟

قبل ذلك كله، لا بد من إلقاء نظرة مطولة على التحكيم الذي لا بد منه من أجل أن يربح أحد ويخسر آخر، والتحكيم في تلك الجوائز، كما هو معروف، يتكون من لجان تضم أشخصا لهم في الغالب علاقة بالكتابة، فإما أن يكونوا مبدعين، قدموا أعمالا من قبل، أو نقادا، أو أكاديميين، وأحيانا مجرد وجهاء مجتمعيين، يحظون ببعض الاحترام، ويمتلكون قدرا من الثقافة. هؤلاء يكلفون بغربلة الأعمال المتقدمة للجائزة، وتصفيتها، واستخراج قوائم نهائية، يستخرج منها الفائزون بعد ذلك. هذا شيء مشروع، بلا شك، وحتى جوائز الغرب التي تأثرنا بها، واستوردنا بعضها، تتبع في معظمها نهجا مشابها لذلك، فيما عدا جوائز أخرى تقرر بعض الأكاديميات منحها لمبدع ما، على مجمل أعماله، من دون أن يغربل نصوصه أحد. لكن هنا يأتي السؤال المهم: ما هي المبررات التي تسوقها تلك اللجان المشكلة، لمنح نص جائزة، وعدم منح نص آخر.

من خلال متابعتي لما ينشر، خاصة في مجال الرواية، وأيضا من تتبعي لمسيرة تلك الجوائز، سوى أن كانت عربية، أو غربية، أرى إن الأمر يعتمد

أساسا على التذوق الذي يحمله المحكمون المفترضة نزاهتهم، أكثر من أي شيء آخر. هناك من يتذوق النص الكلاسيكي الخالي من أي نكهة تجريب ويصوت له عن قناعة، من يتذوق نصا تجريبيا حداثيا، أو كتب بلغة بعيدة عن المألوف، ويصوت له، ومن لا يتذوق هذا ولا ذاك، أو يعترف بأي نص مهما كان، وليس الأمر خاص ببلادنا في هذا الصدد، ولكن حتى بتلك الجوائز الغربية العريقة، وأذكر تلك الناقدة الأمريكية التي احتجت بشدة، وهاجمت لجنة للتحكيم، كانت عضوا فيها، لأن جائزة رفيعة المستوى منحت للروائي القديم، فيليب روث، لا لسبب سوى أنها لم تكن من عشاق أدبه، ولا اعترفت به كاتبا في أي يوم من الأيام، كما ذكرت في مقابلة معها، وحدث نفس الأمر في إحدى الجوائز العربية، لكن بطريقة مختلفة. وفي العام الماضي، التقيت مصادفة، بناقد أكاديمي، من إحدى البلاد العربية، يمكن بسهولة شديدة، أن يظهر اسمه ذات يوم بين محكمي إحدى الجوائز، تناقشنا في الكتابة طويلا، عن أول رواية عربية كتبت، وأين ظهرت؟، وهل الرواية هي ديوان العرب الجديد بالفعل، أم لا؟، وفوجئت به يخبرني بصرامة شديدة: إنه يملك ست عشرة قاعدة أساسية في الكتابة، يجب أن يستوفيها كل من يكتب رواية، حتى يطلق عليه لقب الروائي، وقد قام بتطبيق تلك القواعد أولا على كتاب بلده بمختلف أجيالهم، و لم يحصل على روائي واحد، ونزح بها بعد ذلك إلى الخارج، وطبقها على عدد كبير، من كتاب الوطن العربي المعروفين، و لم يحصل سوى على روائي واحد، انطبقت عليه القواعد كلها، هو نجيب محفوظ، أما الآخرون ممن حامت حولهم القواعد، و لم ترتديهم،

فإما مشاريع روائيين لم تكتمل، أو دخلاء على صنعة الرواية، كان أولى بهم أن يتركوها في حالها، ويتجهوا إلى صنع أخرى.

إذا ما أخذنا تلك العسكرة النقدية، لذلك الناقد الأكاديمي على محمل الجد، وسآخذها بكل تأكيد، يكون روائيون عظماء مثل الطيب صالح وجبرا إبراهيم جبرا، وحنا مينا وعبد الرحمن منيف، وكثيرون غيرهم، مجرد مشاريع روائيين، لم تكتمل لأسباب مجهولة، وجيلنا والأجيال التي سبقته، والتي أتت بعده، مجرد أدعياء، ودخلاء على صنعة لا يعرفونها، وعليهم أن يبحثوا عن الذي يعرفونه. والحقيقة أنني لا أستبعد أبدا، أن تكون تلك القواعد الست عشرة، أو قواعد شبيهة بها، مخبأة في أذهان آخرين، لكنهم لم يجرؤوا على التصريح بها، كما صرح صاحبنا.

لذلك أعود، لأؤكد رأيا طالما كنت من أنصاره، وهو أن المحكم الحقيقي للعمل الإبداعي، أولا وأخيرا، هو القارئ الذي لا يملك شهادة أكاديمية، ولا يكلف بمتابعة النصوص وغربلتها، لكنه يكلف نفسه بنفسه، ولذلك طالما وجدنا أعمالا روائية كثيرة، لفظت من الجوائز بفظاظة، وحصلت على شرعيتها، وحققت انتشارها، خارج القانون الأكاديمي، أو الرسمي، ولعل نموذج جائزة غونكور الفرنسية، هو الأنسب في تلك الحالة، لأن أكثر من ألف وخمسمائة قارئ محكم، إن اتفقت أغلبيتهم على نص، فهذا يعني أنه نص جدير بالاحترام. وشخصيا اعتدت الرجوع إلى رأي القارئ واحتضانه في كثير من أعمالي، أراه يتسق مع التوجه الحقيقي للنص، أنه أنتج ليقرأ، خارج سلطة المنح والمنع التي تمنح أو لا تمنح الجوائز.

رأي آخر أكثر تطرفا، أن لا نعتبر من هو كاتب أو ناقد، أو لديه صلة بالكتابة، محكما محتملا في جائزة ما، إلا إذا خضع لتدريب خاص، يزعزع ذائقته الثابتة، يفتحها على أفق أرحب.

وأخيرا، أقولها بكل صراحة، بأنني أيضا بحاجة لذلك التدريب الشاق، حتى ألغي تذوقي الشخصي، الذي يتوقف حارنًا عند أعمال معينة، ويرفض أعمالا أخرى مجيدة، لأنها خارج محيطه، لا لأكون محكما في مسابقة، ولكن نزيها في رأيي حين أسأل عن أعمال جيدة المستوى، ولكني لم أحبها.

لماذا نكتب

طرح زميلنا الكاتب والناقد السوداني، صلاح سر الختم، مرة على صفحته في الفيس بوك، سؤالا في غاية الأهمية، ويمكن أن يكون قد طرح كثيرا من قبل، لكن طرحه الآن في زمن الإنترنت، والثورات، والحياة المادية المسيطرة، يصبح أكثر أهمية. السؤال:

لماذا نكتب؟

الحقيقة أن كثيرين من الذين يكتبون، يتغاضون كثيرا عن طرح الأسئلة المتعلقة بالكتابة، بوصفها قد تكون أدوات إحباط كبرى، لو حاولوا أن يعثروا على إجابات لها، والكاتب يريد أن يكتب بحرية، بلا أسئلة ولا أجوبة، ولا بمن يذكره بأن هناك جدوى من الكتابة، أو عدم جدوى على الإطلاق، وفي متابعاتي المكثفة للصفحات الثقافية، ومواقع الإنترنت،

وموقع الفيس بوك الجاذب للكل، أجد أن قطاعات كبيرة من الناس تكتب، لا يهم ما يكتبون ولكنهم مستمرين في الكتابة، تجد كتاب القصة، وكتاب الرواية، وكتاب الخواطر السريعة، وبعض عبارات فلسفية أو عاطفية مستلفة من هنا وهناك، وتجد تعليقات بالاستحسان غالبا، وفي المواقع التي تتيح للقراء فرصة أن يعلقوا على مقال قرأوه، مثل موقع الجزيرة نت، ومواقع معظم الصحف اليومية، تجد قراء يكتبون، وفي أحيان كثيرة، لا تكون تعليقاتهم مختصة بالمقال، إنما يخترعون كتابة أخرى، من أجل أن يكتبوا.

وبالنسبة للكتاب الذين عبدوا طريقهم، وأصبحت لهم مكانتهم الكبرى في هذا المجال، فإنهم يتلقون عشرات الرسائل وعشرات المخطوطات يوميا، من كتاب حديثي العهد بالكتابة، ويبحثون عن ضوء، عن غطاء كبير، يقرر لهم مشروعية كتابتهم، حتى يستمروا، وهكذا نجد الدنيا كلها تكتب، لكن بفروق واضحة، الفروق التي تجعلني أطرح سؤالا آخر:

من هو الكاتب الجدير بأن يكتب؟

بالنسبة للسؤال الأول، ليست هناك إجابة محددة، وأستطيع أن أقول بأن الكتابة الملهمة، جزء من تركيب شخصية بعض الناس، ولدوا بها واستمروا بها، ودائما ما تجد تاريخا يعود إلى زمن الطفولة، والدراسة المبكرة، يرسم هؤلاء الأشخاص، واسعي الخيال، ويحصلون على درجات جيدة في حصص الإنشاء التي تستوجب تفعيل الخيال، وتجدهم

بعد أن كبروا قليلا، قد صاغوا خواطر، أو كتبوا الشعر والقصة، وسعوا للنشر، ونادرا جدا أن تجد كاتبا طرق تلك السكة، بعد أن كبر وتكونت شخصيته، وهنا أيضا أقول بارتياح، إن ثمة جرثومة مبدعة، تعشش في الدم، ولا تخرج أبدا.

أعود إلى جدارة الكتابة من عدمها، فأنا أعتقد بكل أمانة، إن الكاتب الجدير بأن يكتب، ويصنع له قراء متابعين، وحوارات، وغيره، هو الكاتب الذي يستطيع أن يتبرأ بسهولة من ذلك الكم الهائل من عشاق الكتابة، بلا مقدرات حقيقية، الكاتب الذي يرسم عالما غير مسبوق، ولغة غير متداولة، ويخرج من محك التكرار والوقوع في فخاخ التأثر الكبير الواضح بآخرين، وتشير إليه كتابته، في أي وقت لتقول بأنني كتابته.

الآخرون أعتبرهم قراء مواكبين، أو كتابا تحت التدريب، حتى ينالوا ثقة اللغة التي يكتبون بها، وتلك الساعة، لن يقف في طريقهم أحد.

محترفات الكتابة.. هل تخرج كتابا؟

منذ حوالي عشر سنوات تقريبا، طرح الزميل المثق، والمترجم المصري، طلعت الشايب، فكرة تدريس الكتابة الإبداعية في مدارس أو معاهد خاصة، مثلها مثل أي علم من العلوم التطبيقية الأخرى المعروفة، يحتاج إلى تدريب مكثف، ومحاضرات، وغيره. ولم يقابل طرحه باهتمام كبير، ذلك أننا كنا، في ذلك الوقت، وما نزال إلى حد ما، نؤمن بضرورة أن يكون المبدع موهوبا أولا، ثم يتمرغ في الوحل وحده، حتى ينضج، قبل أن يعترف به رسميا، ككاتب. وكانت بعض المقولات الكلاسيكية، مثل، احفظ ألف بيت من الشعر، ثم انسها بعد ذلك لتكون شاعرا، أو اقرأ لكل من سبقوك، وانسى أنك قرأتهم لتتعلم كتابة الرواية، كانت متوهجة وتردد كثيرا، وهكذا كان طرح مثل تلك الأفكار الجديدة، غير وارد بالمرة، وغير مرحب به في مناخ تسوده عنجهية الثقافة، وتحكمه الأفكار الثابتة.

منذ ست سنوات، ظهرت الجائزة العالمية للرواية العربية، المسماة البوكر العربية، ولأنها ليست جائزة عربية أصلا، ولا نبتت في صحراء حفظ أبيات الشعر ونسيانها، وقراءة روايات الجميع ونسيانها، لتعلم الإبداع، فقد كانت مختلفة تماما، ولها تقاليد متوارثة من جائزة المان بوكر البريطانية، التي خرجت من عباءتها، من بين تلك التقاليد الكثيرة، ورشة سنوية منتظمة للتدريب على الكتابة، لها مشرفون من الكتاب المعروفين، الذين أنفقوا سنوات طويلة في الكتابة، ويحضرها عادة، عدد من الكتاب الشباب، أو الكتاب الذين خاضوا مسألة الكتابة من قبل، على استحياء، ويمكن أن يفيدهم الحضور، لاكتساب خبرات جديدة، تطور من أساليب كتابتهم.

بالطبع ليست جائزة البوكر، هي أول من أوجد ورش الكتابة، التي كانت موجودة على نطاق ضيق ولمدد قصيرة، ولكن عنيت هنا الانتظام السنوي، وأنها تمتد لأيام أطول، محققة أقصى قدر من الفائدة، وينشر نتاجها ويترجم.

هذا التقليد الذي أصبح الآن، شديد الوضوح، ومعترف به، ويتنافس الكتاب البادئون لحضوره في كل عام، أعتبره تطبيقا هاما لجزء من طرح الشايب، هنا الأمر ليس مدرسة، لها مبان معروفة، ومدرسون وطلاب نظاميون، وحصص يومية، وامتحانات في نهاية العام، لكنه اعتراف ضمني أو معنوي بالفكرة، وهي أن الكتابة أيضا يمكن أن تعلم، أو بالأحرى تطور لدى من يملكون بدايات مبشرة، بحاجة إلى تطوير.

في ورشة البوكر، وغيرها من الورش الأخرى، التي بدأت تنشر، مثل الورش المسرحية، وورش القصة القصيرة والسيناريو، قد تجد خامات جديرة بالالتفات إليها، ويمكن بقليل من الإرشاد أن تصنع من كتابتها نصوصا أخاذة، في نفس الوقت، قد تجد خامات رديئة، تحتاج إلى إرشاد مكثف، وخبز وعجن، لزمن طويل، حتى تحصل على نص قابل للتداول، ومن ثم قابل للنشر، ومن المهم الإشارة هنا إلى جهود الكاتبة اللبنانية المقيمة في فرنسا، نجوى بركات التي اهتمت بمسألة التدريب الكتابي المحترف، وانتقلت بمحترفاتها إلى أكثر من بلد عربي، وخرج من تلك المحترفات، كتاب جديرون بتتبعهم، ومطالعة نتاجهم، مثل الزميلة رشا الأطرش من لبنان، وروايتها صابون التي تشد الأنفاس.

هنا لا أريد أن ألغي دور الموهبة، ولن أسميها الموهبة، ولكن أسميها حب الكتابة، فالذي يحب الكتابة، يمتلك من الصبر، ما يجعله يناضل لينال ثقة حبه، ويكون كاتبا، وحين يجد من يمسك بيده في مثل تلك الورش، أو المحترفات، قطعا ينتج بصورة لا يمكن تخيلها، وربما كان كثيرون يملكون الموهبة، ولكن يفتقدون الصبر الذي يساند مواهبهم، ومن ثم لا نسمع لهم حسا، إلا نادرا.

الشيء الملفت كذلك، في ورش التدريب على الكتابة، سواء في أوروبا أو لدينا، إنها لا تخضع لتوجيه نقدي صارم، يبذره نقاد للأعمال الإبداعية، ولكن تعتمد على خبرة من كتبوا الإبداع، وهم قطعا زملاء عاديون ومتعاونون لكل الذين يشاركون في تلك الورش، ليس ثمة

تعال، ولا فرض رأي، أو أسلوب معين، من الواجب اتباعه، ولكن نقاش متواصل يشارك فيه الجميع، ليصلوا إلى النص المطلوب.

في العام الماضي، تم اختيارنا أنا والزميلة الكاتبة المصرية، منصورة عز الدين، للإشراف على ورشة الكتابة السنوية، لجائزة البوكر، للعام الماضي، والتي خصص لها مكان منعزل ساحر، في صحراء الربع الخالي، وحضرها كتاب من الكويت والبحرين وسلطنة عمان، ولبنان والعراق والإمارات العربية. بعضهم كتب عدة روايات، ونشرها معتمدا على نفسه، وفهمه الذي استخرجه عن الكتابة، وسار عليه، بعضهم كتب رواية واحدة، كان يعتز بها، أو يسعى لإكمال رواية، منطلقا من حبه للكتابة. هؤلاء الكتاب الذين اعتبروا ناشئين، و لم يكن معظمهم ناشئين حقيقة، ولكن منغرسين في العمل الكتابي، بدليل ما نشروه من أعمال، كانوا يملكون الصبر، الذي قلت بأنه أكبر داعم للاستمرار في الإبداع، وكان مطلوبا منهم أن يكتبوا قصصا أو فصولا من روايات، نعود لنناقشها معهم أثناء انعقاد الورشة، وتسلم بعد ذلك، جاهزة للنشر.

الحقيقة، كان العمل مع أولئك الكتاب، رائعا للغاية، النتوءات التي كانت توجد في أعمالهم التي قدموها، كانت تزال بسلاسة، أخطاء الصياغات التي قد تحدث هنا وهناك، تعالج بلا مشاكل، ولا تذمر، ويشارك الجميع في تعديلها، الأحداث وتسلسلها، تمنطق، أو يعدل مسارها في اتجاه المنطق، وفي النهاية ما النتيجة؟. أعمال في غاية الرشاقة والتماسك، يمكن أن تكون قد كتبت بأقلام تعودت على الكتابة لعشرات

السنين. هؤلاء كانوا يرددون بأنهم استفادوا من الورشة، ويتمنون أن يحضروا عشرات الورش، في المستقبل، حتى ينفتح إبداعهم على آفاق أرحب. وحين انتهت أعمال الورشة كنا نحس أنا وزميلتي منصورة، بأننا أيضا قد استفدنا كثيرا، وربما ننتج أعمالا أكثر زخما في المستقبل.

أعود وبعد أن أكدت يقيني بجدوى تدريس الكتابة، لأقول، إن الموضوع الآن في غاية الجدية، ما كان فكرة بالأمس، تحول إلى شيء يسير من التطبيق، وأعتقد لو أن مثل تلك الورشة التي حضرتها، امتدت شهرا أو شهرين مثلا، لربما حصلنا على روايات مكتملة، من أولئك المشاركين، وليس فصولا من روايات، أو قصصا قصيرة، وأضيف بأنني لا أستبعد أبدا، أن تكون للكتابة الإبداعية مستقبلا، مدارس منفصلة، كما كانت فكرة الشايب.

كتابة الرواية والسيرة

حين يخطط كاتب ما لكتابة رواية، أو يشرع في كتابتها بالفعل، أول ما يخطر على باله، وينتقل إلى كتابته سريعا، أحداثا ربما مرت به في الحياة، وتفاعل معها، وبالتالي كانت لها الأولوية في الكتابة، أكثر من الأحداث التي يبتكرها الخيال الصرف، ودائما ما نجد سنوات الطفولة، والشباب المبكر، تحتل مساحات كبيرة في الروايات، بوصفها خبرات أولى، أو خامات خبرات، تطورت بعد ذلك، بتقدم العمر. قد يستمر الكاتب في رصد أحداثه الحقيقية حتى تنتهي الرواية، وقد ينجو من فخها، ويوظف خياله، ويخترع أحداثا وشخصيات، لم تكن من واقعه، ولا صادفها في يوم من الأيام، مضيفا للكتابة طعما آخر، وهنا نستطيع أن نسمي النص رواية.

إذا كانت كتابة الرواية، عمل شاق ومضن، ويحتاج إلى كثير من الصبر لإنجازه، فإن كتابة السيرة، أكثر مشقة في نظري. فبجانب رصد الأحداث ومتابعتها، ومحاولة الإمساك بالخيوط جيدا، حتى لا يضيع خيط، وينهار العمل، تأتي مسألة الصدق الذي لا بد منه، حين يكتب أحدهم سيرة ذاتية. السيرة هنا لا تخص الكاتب وحده، لأنه لا يوجد إنسان يعيش في غرفة مغلقة، بمعزل عن مجتمعه، ليكتب نفسه فقط. لا بد من أهل وأقارب ومحيطين بالكاتب، ووحل خاضه، وسلطات تراقبه، وأشخاص ارتقى أو انحدر معهم، ولا بد من بيوت اطلع على خفاياها، وشوارع سار فيها بخير وبشر، وأخيرا لا بد من أبواب مغلقة، وممنوع طرقها حتى برفق، سيضطر إلى فتحها جميعا، لقراء لا يعرف عددهم، ولا مستوى فهمهم.

لذلك الذي ذكرته، لا نجد روايات كثيرة، استمرت سيرا شخصية، حتى نهايتها بصدق، نجد في الغالب، شذرات من السيرة، تم تهجينها بكثير من الخيال، وتمت الإضافة إليها، أو الحذف منها، لتصبح بعيدة عن الصدق، وبالتالي بعيدة، عن رواية السيرة، وحين تنشر، يكتب على غلافها روايات، حتى يمحي أي أثر لإدراجها سيرة محرجة، وربما تجر وراءها ردود أفعال، لم يكن الكاتب يحسب لها حسابا. هناك أيضا، محاولة تجميل السيرة الشخصية، عند بعض الكتاب، وأعني هنا، أن يكتب الروائي سيرة صادقة بالفعل، فيها شيء من أحداث حياته، لكنه لا يكتبها كاملة، هو هنا يكتب الوجه الصبوح من سيرته، ويغفل الوجه المتجهم، أو الوجه غير المقبول، إذا طالعه أحد، كأن يكتب أحدهم سيرة له في

سجن، دخله معارضا لسلطة ما، ويحذف شارعا خلفيا موحلا، خاض في وحله ذات يوم. كأن يكتب قصة لقائه بزوجته، وكيف تعارفا، وتحابا وتزوجا، وينسى عشيقات ضائعات، ضاع معهن في فترة من فترات حياته. ولعل من الكتب التي أعتبرها صادقة، في الأدب العالمي والعربي، لأنها لم تظهر وجها صبوحا، وتخفي آخر متجهما، السيرة التي كتبها الإسرائيلي "عاموس عوز"، بعنوان: قصة عن الحب والظلام، وصدرت منذ عدة أعوام، واحتلت مرتبة جيدة في توزيع الكتب. عاموس لم يكتب بقلم نظيف منزه عن شوائب السقوط الحتمي لكاتب يهودي من شرق آوروبا، عاش في أرض مغتصبة، باعتبارها أرضه. فقد كتب بقلبه حقيقة، كتب عن حبه، وعائلته وسكان شارع بيته، وقراءاته، وعلاقاته العاطفية والجنسية، ونظرته الأحادية المتطرفة للشعب الفلسطيني، الذي لم يستخدم في حقه نظرة الكاتب المثقف، المتعالي على ماكينة الطحن الإسرائيلية، حين تطال شعبا صاحب أرض، يعذب فيها، ولكن تحس به يهوديا عاديا، بلا أي نظرة أخرى. كذلك السيرة العظيمة لجارسيا ماركيز، التي ترجمها عن الإسبانية طلعت شاهين، بعنوان: عشناها لترويها. وأعتقد أن ماركيز، وهو الكاتب الأسطوري، كان بإمكانه حذف كثير من مشاهد التشرد، والضياع من تلك السيرة الصادقة، لكنه لم يفعل، وأبقاها هكذا، بكل ما فيها من إشراق وعتمة، من رمل صاف، ووحل تخوض فيه حتى الركبتين. ومن أمثلة تلك السير الصادقة، رواية محمد شكري الشهيرة: الخبز الحافي، وحسب اعتقادي، هي أول رواية سيرة، كسرت كل حواجز التسامح التقليدي في المجتمع العربي، حين يصفح الولد عن أبيه برغم

الظلم، ويصفح المواطن عن وطنه، مهما أذله، ولا عجب أن تلك السيرة، انتشرت بشدة، وقرئت باعتبارها من الأدب الممنوع، أو الفضائحي، في ذلك الوقت، وإلى يومنا هذا. ولو كان صديقنا الكاتب العراقي، صموئيل شمعون صادقا في روايته: عراقي في باريس، ولا أشك في صدقه، فقد كتب عملا بديعا آخر، نظيفا من كل شوائب النقاء المصطنع، حيث كل الأشياء موجودة بمسمياتها، و لم يكن ينقص سوى أن يكتب على غلاف كتابه: سيرة.

يحضرني كتاب: بائع الكتب في كابول، وهو سيرة لعائلة سلطان بائع الكتب الأفغاني الذي يملك مكتبة في وسط كابول، يبيع فيها لزبائنه، كل ما يستطيع إدخاله من كتب، كانت قراءتها ممنوعة في زمن يكاد أن يمنع فيه التنفس الحر. السيرة له ولعائلته، وكتبتها صحفية أمريكية تعرفت على سلطان، وعاشت في وسط عائلته، لمدة عام تقريبا، واقتربت من خفايا تلك العائلة، شهدت أفراحها وأحزانها، طقوس الولادة عندها وطقوس الزواج، والموت، وكثير من الأشياء المدسوسة تحت نقاب النساء، ومن خلال تلك السيرة أيضا، نبشت أفغانستان في عهد الطالبان نبشا شديدا، وعادت إلى بلادها بمحصول وافر. وسعى بائع الكتب الذي وافق على دسها وسط حريمه، والسماح لها بكتابة أسرته في ذلك الكتاب من قبل، إلى مقاضاتها، وطلب تعويض كبير، بعد أن انتشر الكتاب عالميا، بوصفها انتهكت خصوصية عائلة محافظة وعرضتها للعالم. وما ذلك التصرف من بائع الكتب، إلا رد فعل كان متوقعا، ولا أعتقد أن ما حركه، هتك

الخصوصية، وقد سمح بهتكها، ولكن لينال نصيبه من الغنيمة الكبيرة التي غنمتها الكاتبة.

هناك أيضا نوع من السيرة، هي في الحقيقة ليست سيرة، ولكنها متخيل لسيرة لم تحدث، يكتب عليها الكاتب، أنها سيرة، ويروج لها على هذا الأساس، الكاتب، هنا يسعى لجذب أكبر عدد من القراء، ومعروف أن السيرة الذاتية لأي شخص، له نصيب من الشهرة، لها عشاقها، والمتحاومين من حولها، ومن أمثلة ذلك ما كان يكتبه الروائي الراحل، آرنستو ساباتو، باعتباره سيرة، وهو في الحقيقة متخيل صرف.

في النهاية، أعود لأشدد على مسألة الصدق في الكتابة، ما هو رواية، يكتب رواية، وما هو سيرة، يكتب سيرة، مهما كانت تبعاتها، وعلى الكاتب الذي يخشى فوران مجتمعه المحيط، أن يقنع بكتابة روايته العادية، التي تحوي شيئا من السيرة، وشيئا من خياله، حتى ينجو، ولا أظن أن السير المنقحة، يحترمها القارئ، الذي سيكتشفها بسهولة، لأن الحياة ليست كلها نجاحات، وليست كلها حدائق مزروعة وردا.

عن الحوارات وطقوس الكتابة

لا شك أن مسألة محاورة مبدع ما، في شتى مجالات الإبداع الكتابي أو الفني، عن تجربته، تعد من المسائل الحيوية، وهي أيضا جزء هام من عمل الصفحات الثقافية، والبرامج الإذاعية والتلفزيونية، التي تهتم بالثقافة في أي مكان، أن تستضيف ذلك المبدع، وتطرح عليه عددا من الأسئلة التي من المفترض أن يجيب عليها بكل نزاهة، وتجرد، موضحا نقاطا معتمة في تجربته، ربما يحتاجها قارئه من أجل الدخول إلى تلك التجربة، أو يستخدمها الناقد والدارس حين يتناول بالتفصيل، عملا لذلك المبدع. وهناك كتاب كثيرون، أجادوا فن الإجابات على محاوريهم، تماما كما أجادوا الكتابة، ولم تخل حواراتهم من متعة، يمكن أن تشد القراء إليها كما تشد القصيدة الجيدة، والرواية المكتوبة بإتقان. وقد ترجم الروائي الأردني إلياس فركوح، حوارات مع كتاب مثل ميلان كونديرا، والإسباني

خوان غوتسيلو، وآخرين، ضمنها في كتاب هام، تحدث فيها هؤلاء، عن تجاربهم، وطقوس الكتابة عندهم، ومواقفهم السياسية، والإنسانية إزاء القهر والظلم، وآرائهم في توظيف الجمال والفن في ما يكتبون، وأعتبره من الكتب التي يمكن قراءتها بنفس المتعة التي يقرأ بها العمل الأدبي لهولاء، ذلك أن الإضاءة داخلها كانت كثيفة، والعوالم التي لا نستطيع الإمساك بها كاملة داخل النص الإبداعي، يمكن أن تأتي كاملة هنا. وكما فعل الياس فركوح، فعل آخرون، غالبا من محرري الصفحات الثقافية المتميزين، حين وضعوا حواراتهم التي أجروها مع مبدعين على مدى سنوات، داخل كتب، ليسهل اقتناءها، ومن ثم قراءتها، ومن هؤلاء الصحفي السعودي طامي السميري، الذي نشر مؤخرا، كتابا جميلا عن حواراته مع المبدعين، ضم كتابا من أجيال عربية مختلفة، ومن مدارس كتابية متعددة.

على أن تلك الحوارات برغم فائدتها الكبرى التي ذكرتها، لا يجب أن تكون شغلا شاغلا للمبدع، يلهيه عن عمله الأصلي وهو الإبداع، بمعنى أن يتأنى المبدع كثيرا قبل الموافقة على إجراء أي حوار، ولا يستجيب إلا لتلك الحوارات التي تعد إعدادا جيدا، من محاور ينبغي أن يكون ملما إلماما كاملا بتجربة الكاتب، قبل أن يدخل معه في حوار، فالحوار الناقص، أو الحوار الذي يعد من السمع فقط، ومن قراءة أخبار هنا وهناك عن الكاتب، من دون قراءة نصوصه، يؤدي بلا شك إلى تشويه التجربة، ويمكن أن يحس الكاتب، ومعه القارئ أيضا بالسأم من تكرار أسئلة بعينها، والمشي على طرق معبدة سلفا، لا تؤدي إلى جديد، يستهوى أو يشد.

وفي تجربتي الخاصة على مدى العامين الماضيين، لا يمر يوم من دون أن أجد أسئلة في بريدي تبحث عن أجوبة، رجاءات بالموافقة على إجراء حوارات، أو أعثر في كثير من الأحيان، على تجميعات من حوارات سابقة، وأسئلة لم تطرح علي من قبل، تمت الإجابة عنها نيابة عني ووضعت في الصحف، سوى أتلك الورقية منها أو الإليكترونية، ونتيجة لتلك الضغوط، لم أعد أجد وقتا للكتابة، لا أستطيع التفكير بصفاء، ولا أستطيع أن أعثر على بداياتي ونهاياتي، ونصوصي التي أحب كتابتها، وتحب هي أن أكتبها، برغم كل ما نسببه لبعضنا من كآبة.

ما انطبق علي، ينطبق على غيري من الكتاب الذين، تم إشغالهم أيضا في حوارات مكثفة، وبعضها غير مدروس أبدا، مثل محاورة قدمتني مرة في برنامج إذاعي، بصفتي كاتبا لمئتي رواية، وبالطبع لا يمكن لأحد أن يكتب هذا العدد من الروايات، حتى لو عاش أضعاف عمره، وهذه المحاورة بالقطع لا تعرف عن تجربتي شيئا، ولا أتوقع أنها سمعت باسمي، قبل أن تجري ذلك الحوار الذي لم يخل عن الأسئلة المعتادة التي أجبت عليها عشرات المرات من قبل. أيضا أخبرني أحد الزملاء الروائيين، إنه تلقى حوارا من صحفي، يسأله عن أعمال كاتب آخر، وطقوس كتابتها، وكيف استوحاها، ورسم شخصياتها، باعتبارها أعماله هو. ولو كانت تلك المحاورة، أو الصحفي الذي أرسل الحوار لزميلي مهمومين بالثقافة بالفعل، وليس مسألة أداء عمل روتيني، لكان الحواران مثمران بكل تأكيد.

أيضا ثمة خلط كبير في أسئلة المحاورين، بين ما هو خاص بالتجربة الكتابية عموما وما هو خاص بالسيرة الذاتية التي ربما لا يريد الكاتب أن يزيح عنها الغطاء لاعتبارات شتى، ربما باعتبارها لا تهم أحدا كثيرا، أو تؤدي إلى إشكالات لا يود الكاتب أن يخوض فيها في الوقت الحاضر. وشخصيا برغم تورطي في الإجابة عن أسئلة شديدة الخصوصية من قبل، إلا أنني طالما تمنيت أن أسأل عن تجربتي في الكتابة فقط، من أين آتي بالنصوص، والشخصيات، من دون التدخل في تلك الطرق التي سلكتها حتى أصبحت هدفا للحوارات. هذا يمكن أن أكتبه في سيرة ذاتية، إذا ما قررت كتابة سيرة ذاتية ذات يوم.

بالنسبة لطقوس الكتابة، عند أي كاتب، هذا شيء مهم يغفله معظم المحاورين، وفي رأيي أن طقوس الكتابة لدى كل من يكتب، لا تخلو من الطرافة، والإمتاع أيضا، إذا ما ألقي عليها بعض الضوء، هناك من يكتب في الأمكنة المغلقة الهادئة، كمن يحافظ على سر، هناك من يكتب في المقاهي، وفي أركان الشوارع الضاجة، وهناك من يكتب نهارا ومن يكتب ليلا، ومن لا يكتب إلا في ساعة التوتر القصوى، من يكتب ساعات محددة في اليوم، وفي فصول محددة من السنة، ومن يكتب في أي زمن وأي ساعة يعثر فيها على كتابة، وهكذا، وقد ذكر لي الكاتب العظيم الطيب صالح، إنه كان يحب الكتابة ليلا، في مكان شبه مفتوح، وبأقصى درجة من التوتر. وقد كتبت من قبل عما يمكن أن نسميه بأماكن الإلهام، وهي أماكن يقترحها الكاتب لنفسه، ويتوهم أن لا كتابة ستأتي إلا فيها، وفي الغالب لا يكون الأمر حقيقيا، ولكن مجرد إيحاءات نفسية، تمنح تلك

الأماكن قامات أعلى منها، وتلبسها قداسة لا تملكها حقيقة، لأن ذلك الكاتب يستطيع أن يكتب إن كان لا بد أن يكتب، في أي مكان آخر بعيد عنها.

أخلص إلى أن الحوارات مع المبدعين، شيء لا بد منه، من أجل أن تكتمل التجربة الإبداعية، ومن أجل أن يلم بها القارئ المهتم، والدارس للمبدع، والمبدع نفسه حين يقيم حوار ا أجراه، ويضيف بعض نقاطه إلى تجربته، ولكن أصر أيضا على وظيفة المبدع الأولى، وهي الإبداع بعيدا عن الضغوط الحوارية المكررة، التي تستهلك وقته، وربما تحوله بمرور الزمن، إلى وجه كئيب مكشوف، لا يود أحد مطالعته، أو قراءة أجاباته المكررة.

الأكثر تأثيراً

في استطلاع للرأي أجرى منذ فترة، مع عدد من الأدباء والمفكرين وقراء أيضا، تم انتقائهم عشوائيا، من جميع أنحاء العالم، عن أكثر الكتب تأثيرا في حياتهم العامة والخاصة، اعتلت رواية (مائة عام من العزلة) للروائي الكولومبي العظيم جابرييل جارثيا ماركيز، أذهان معظم الذين تم استطلاع آرائهم، باعتبارها الرواية الأكثر تأثيرا في الأدب العالمي، بالرغم من أن روايات أخرى عديدة، مثل رواية الخيميائي لباولو كويلو، أو اسم الوردة لامبرتو إيكو، فاقتها انتشارا من حيث بيع النسخ، حيث خلق جوها الغرائبي غير المألوف من قبل، لمائة عام من العزلة، إمتاعا لا يمكن أن ينسى، وحلقت شخصياتها الأليفة والعنيفة معا، الرقيقة والخشنة، التي احتلت مساحة كبيرة في الحكي، والتي احتلت بضع أسطر فقط، تواصلا

فذا مع كل الشعوب وبمختلف اللغات العالمية التي ترجمت إليها من اللغة الإسبانية التي كتبت بها، بما في ذلك اللغة العربية، والصينية التي ترجمت إليها مؤخرا.

الرواية التي كتبها ماركيز قبل أكثر من أربعين عاما، عن مدينة ماكندو المتخيلة، وأسرة الكولونيل أركاديو بونديا التي ساهمت في تأسيس المدينة، وأنتجت أجيالا، وحكى ظروف كتابتها مرارا، وأنه راهن بها في أيام فقر عاشه مع أسرته، حيث كان يكتبها على آلة كاتبة عتيقة، وأرسلها إلى الناشر في جزئين، كانا معكوسين، حين أرسل الجزء الثاني قبل الأول، بسبب استعجاله، وكسب الرهان حين انتشرت بعد ذلك، وأوصلته إلى نوبل الآداب، كانت من العلامات الأولى التي قادت الناس إلى عالم ذلك الكاتب الكولومبي المدهش، وعالم أمريكا اللاتينية كلها، ومن ثم بدأ التنقيب في أعماله السابقة وإعادة اكتشافها، والاستمتاع بقراءتها، وأيضا التنقيب في أدب اللاتينيين، ليصبح بعد ذلك أدبا متميزا، وأصليا لا يشبه الآداب الأخرى.

وحقيقة إن معظم الأعمال التي كتبها ماركيز، سوى التي كتبت قبل أو بعد مائة عام من العزلة، مثل أحداث موت معلن، التي تكشف الحدث منذ بدايته ولا تفقد التشويق برغم ذلك، وخريف البطريرك، المعقدة، التي قال ماركيز، إنها أرهقته ذهنيا، والحب في زمن الكوليرا التي تحكي قصة حب خالد، لم يضع أو يتهدم برغم مرور الزمن، كل تلك الأعمال تحمل ذات الحس الساحر الذي يملكه ماركيز، وتلك الحبال الأسطورية التي تقيد

القارئ إلى طاولة القراءة، وأيضا كثيرا من البهارات والتوابل الفنية التي ينثرها هنا وهناك، وتعطي طبخاته الإبداعية مذاقا لا يقاوم، حتى السيرة المعنونة بحادث اختطاف، التي كتبها عن صديقة له، اختطفتها عصابات المخدرات في كولومبيا، وظلت أسيرة لزمن طويل قبل الإفراج عنها، وسيرته الشخصية التي ترجمها طلعت شاهين، كتبت بذات القلم الساحر الممتع، وباستثناء أعمال قليلة، كتبها مؤخرا، في ما سميته بشيخوخة الكتابة، في إحدى مقالاتي، تلك التي يأتي بها العمر المتقدم، وتخفض كثيرا من لعنة الكتابة، مثل رواية (ذكرى غانياتي الحزينات) التي أعتبرها أقل مرتبة من كتابته المعروفة، وكتبها تأثرا برواية الجميلات النائمة، التي صرح بأنه معجب بها، يكون الكولمبي جابرييل جارسيا ماركيز، في رأيي الشخصي ككاتب، ومتابع للآداب منذ وعيت، هو أعظم كاتب معاصر، اصطادته الكتابة واصطادها.

هذا الرأي لا ينقص من قدر كتاب آخرين، بعضهم سبق ماركيز، مثل وليام فوكنر، صاحب الصخب والعنف، الذي ذكره ماركيز نفسه، بوصفه أحد أساتذته، وأنه تعلم منه الكثير، أو الأمريكي جوزف كونراد، صاحب قلب الظلام، أو خورخي لويس بورخيس، أحد مبتكري الواقعية السحرية في الأدب، أو عاصروه، وانغمسوا معه في صداقة أو عداوة، مثل يوسا، فقد اجتهدوا كلهم وأجادوا، لكن يبقى سحر ماركيز، هو الأجل، والذي قاد استطلاع الرأي مباشرة إلى روايته مائة عام من العزلة.

رواية مائة عام من العزلة، كان لها أيضا تأثيرا كبيرا على الكتاب في

الوطن العربي، أولئك الذين كانوا يمتلكون عوالم مدهشة في محيطهم، و لم يجربوا خوضها، إما من رهبة من ذلك الخوض، أو خوفا من أن ينتجوا أعمالا توصف بأنها غير واقعية في زمن كانت تسود فيه الواقعية بشتى تفرعاتها، كانت تلك الرواية إذن، هي المدخل لكسر الرهبة، والدخول بلا وجل إلى سكك جديدة في الكتابة، وإنتاج أعمال تخترع العوالم الموازية للواقع، التي تأخذ منه العديد من مفرداته، وتمنحه مفردات ثرية أخرى، وبذلك وجدت الأساطير والطقوس الغريبة التي يغص بها عالمنا العربي، في كل بلدانه تقريبا، طريقها للكتابة الإبداعية، وأصبح ثمة قراء ومتذوقون لهذا النوع من الأدب.

وبالنسبة لتجربتي الشخصية، ككاتب يحسب على الواقعية السحرية، وتوصف عوالمي بالغرائبية، أستطيع أن أقول بأنني كنت من الذين استفادوا من جرأة ماركيز، من دون أن أتأثر بكتابته، وكانت تلك الكتابة التي توظف الواقع، وتوظف الأسطورة والحلم، في نفس الوقت.

بعيدا عن مائة عام من العزلة، وبقراءة الكتب العربية التي تخصنا، ما هي الكتب التي يمكن أن تكون قد أحدثت تأثيرا كبيرا في أذهاننا وعالمنا ككتاب وقراء ومفكرين، يمكن أن يكون شبيها بما أحدثته رواية ماركيز في العالم؟

أعتقد وقد يختلف معي آخرون أن ثمة أعمال كتابية صدرت في زمن القراءة الذهبي، الذي لم يعد موجودا للأسف، أحدثت تأثيرا كبيرا، فتحت عوالم مغلقة في الكتابة، وأرشدت عددا كبيرا من الكتاب إلى طريق

الكتابة الغامض، من تلك الأعمال الكبيرة، قطعا تأتي ثلاثية نجيب محفوظ المكونة من بين القصرين، وقصر الشوق والسكرية، ورواية الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ومدن الملح لعبد الرحمن منيف، وماكتبه إميل حبيبي وجبرا، وأعمال أخرى كتبها لبنانيون ومصريون، وآخرون من بلدان عربية مختلفة.

إذن ذلك الاستطلاع الذي أجرى، بالتأكيد يعد مؤشرا إيجابيا على وجود القراءة ما تزال، برغم متغيرات الحياة العديدة التي تهش الناس عنها، وأن البعض ما زالوا يتحدثون عن روايات أحدثت تأثيرا، وليس كتبا في السياسة أو غيرها، فلم يكن استطلاع الرأي عن الكتب الأدبية فقط، وإنما شمل شتى أنواع الكتب.

بقي أن أضيف بأن الكتاب الأكثر تأثيرا، ليس بالضرورة، هو الأوسع انتشارا، هنا يأتي التأثير من قوة الكتاب، وما يحمله بين دفتيه من ألق، ومعان نبيلة، وطموحات وانكسارات، وما يمنحه للقارئ وللثقافة وللأجيال كلها، بينما الأوسع انتشارا، مجرد طفح عشوائي لكتاب ربما لا يحمل أي معنى نبيلا، ولكنه كتب بطريقة تخترع له قارئا شرها، مثل الكتب التي تبنى على الجنس، أو التي تنتهك المقدسات بلا ضرورة، أو التي تهم شرائح معينة في المجتمع.

عن الأعلى مبيعا والأوسع انتشارا

لاحظت في السنوات الأخيرة، في كثير من الصحف والمواقع العربية التي تعني بالثقافة، تردد جملة "الأعلى مبيعا"، أو الأوسع انتشارا لكتب بعينها، منها روايات، ومنها كتب غير أدبية، مثل الكتب السياسية، وكتب أخري تعني بالفكر وغيره. بعض تلك الكتب معروف بالفعل وتمت طباعته عدة مرات، وأيضا تمت مراجعته، وقراءته عبر الصحف بواسطة بعض النقاد، وبعضها بالكاد يعرف أو يعرف مؤلفه.

تلك الجمل الترويجية، التي لا تكون صادقة في الغالب، في بلاد لا تطبع من الكتاب أكثر من ثلاثة آلاف نسخة، في أحسن الأحوال، ولكتاب معينين معروفين منذ زمن، وتكتفي بألف نسخة فقط لمعظم الكتب، جديدة أيضا في الثقافة العربية، مثلها مثل حفلات التوقيع على

الكتب في المعارض، والقاعات الصغيرة المغلقة، التي كانت حتى عهد قريب، غير معروفة أبدا، أو بالأصح غير مفعلة لدينا، ونسمع بها من بعيد، كتقليد غربي عريق، وأصبحت الآن ليست تقليدا فقط، ولكنها طقس روتيني، لا يكاد يخلو منه أي معرض للكتب، حتى لو أقيم في مدرسة ابتدائية. ولأن معظم تلك الحفلات، عشوائية وبلا تنظيم جيد، وتعتمد على جهود المؤلف، وحشده لمعارفه، وأصدقائه، الذين يشترون الكتاب، ويحصلون على التوقيع، نوعا من الدعم المادي والمعنوي، فلا يمكن أن تعد حتى الآن، حفلات ترويجية حقيقية، ينتشر عبرها الكتاب.

في عام 2008، كتب في الصحف، أن رواية لي اسمها زحف النمل، صدرت في القاهرة، كانت من أكثر الكتب مبيعا، في معرض القاهرة الدولي للكتاب ذلك العام، واكتشفت أن ما بيع منها نسخ عادية، لا تتعدى المئة نسخة، وإن صح أنها بهذا العدد المحدود من النسخ، كانت من أكثر الكتب مبيعا، فهذا يعني أنه بالفعل لا توجد قراءة في الوطن العربي، خاصة للأعمال الأدبية، وما يفعله المؤلفون، المنعزلون، المنقطعون للكتابة، هو إضاعة للوقت، والجهد بلا فائدة، وأن مبدأ طباعة ألف نسخة من كل كتاب، الذي يعتمده معظم الناشرين، هو رقم مناسب بالفعل، نستحق لعنته عن جدارة.

حين ينشر في صحيفة أوروبية أو أمريكية، أن كتابا ما، هو الأوسع انتشارا، لهذا الموسم، أو من أوسع الكتب انتشارا، فإن ذلك لا يكتب عبثا، أو مجاملة، ولكن بناء على قراءات مكثفة، راجعت الكتاب بخبرة،

وشوقت لقراءته، بناء على عمل مضن يقوم به محررون أكفاء، لا هم لهم سوى الثقافة، يتقصون في دور النشر ومنافذ البيع، ويطاردون معارض الكتب هنا وهناك قبل أن ينشروا تقاريرهم، وبالتالي هم يتحملون المسؤولية كاملة، وتقع على عاتقهم جريرة أن يروجوا لكتاب، ربما لا يكون كما يراه القارئ، أو ربما لا يكون أعلى مبيعا أو أوسع انتشارا. وإذا قيل بأن رواية (قصر الذئب) مثلا، لهيلاري مانتل، التي حصلت على جائزة المان بوكر، قبل عامين، قد باعت ستين ألف نسخة، في يوم إعلان تتويجها بالجائزة، فهذا حقيقي، بكل تأكيد، ويمكن مشاهدته في الواقع، حين ترى رفوف المكتبات، وقد فرغت من نسخ الرواية، وآلاف القراء، يتزاحمون على الكاتبة، من أجل الحصول على توقيعها. وإذا قيل أن رواية (عداء الطائرة الورقية) للروائي الأفغاني خالد حسيني، الذي يعيش في نيوروك، قد باعت خمسة ملايين نسخة، فهذا أيضا حقيقي، لأن الناشر يؤكده، ويعرف تماما، أنه يؤكد رقما سيدفع مقابله حقوقا للمؤلف.

كذلك توجد في الغرب، كثير من البرامج الحيوية التي تهتم بالثقافة، ولها مشاهدوها غير الملولين، مثل نادي أوبرا للكتاب، وتأتي تلك البرامج بنقادها وقرائها المبدعين لتسألهم مباشرة، بعيدا عن سطوة المؤلفين والناشرين، ليقرروا ماذا اشتروا في هذا الأسبوع أو هذا الشهر، وماذا قرأوا، ومالذي أعجبهم، وما الذي لم يعجبهم. وربما تكون ثمة رواية عادية، لكن في طيها جرح إنساني، تقفز بمبيعاتها لأن قارئا بشعور رهيف، بكى وهو يعلق عليها، مثلما حدث في تلك الرواية الأمريكية التي تحدثت عن أحد أطفال مرض (التوحد) وأبكت الناس، أو الرواية الكورية: أرجوك اعتني

بأمي، التي تحدثت عن ضياع أم في إحدى محطات القطار، ورحلة بحث طويلة من أبنائها الذين كانوا يستعيدون ذكرياتهم معها طوال الوقت.

أقول وبعد سنوات طويلة من المتابعة للجو الثقافي، في عالمنا العربي، سوى بوصفي كاتبا، أو قارئا، بأنه لا توجد قراءة صحيحة للحياة الثقافية، ولا توجد مراجعات دورية دقيقة للكتب التي تصدر، إلا ما ندر، وتعتمد الكتب في ترويجها غالبا على المعلومات الشفوية، في مقاهي المثقفين، أو حديثا على ما يكتبه البعض في مواقع التواصل الاجتماعي، مثل تويتر، والتي تعتمد غالبا على التذوق الشخصي، ولكن ليس على مراجعة دقيقة للكتاب. وفي ذهني رواية (العطر) للألماني باتريك زوسكيند، حين صدرت ترجمتها العربية منذ عدة سنوات، وروج لها شفاهيا بواسطة الذين أعجبتهم، وكنت كلما التقيت شخصا، سألني: هل قرأت العطر؟

إذن قبل أن ندخل في مسألة الأعلى مبيعا والأوسع انتشارا، علينا أن نستورد المنهج الصحيح الذي نستطيع بعد هضمه، أن نكتب تلك العبارات، وبناء عليه، نستطيع أن نقرر مالذي يقرأ والذي لا يقرأ؟، وإذا كانت تلك الكتب فعلا واسعة الانتشار، أم مجرد دعايات لا تستند إلى أي أساس واقعي، وشخصيا أقرأ هذه الأيام، عن أحد كتبي باستمرار بأنه من الأعلى مبيعا والأوسع انتشارا، ولا أستطيع أن أقتنع، لأنني أكاد أعرف عدد النسخ التي طبعت منه، وهي ليست بالعدد الذي يصمد لشراء كهذا، لأكثر من شهر، أعتبر ما يكتب هنا، مجرد أخبار عادية، لا ترقى لمستوى تتبعها.

في النهاية، أعود لأكرر ما أردده دائما، في كل حوار أو جلسة نقاشية، تضم مهتمين بالشأن الثقافي. علينا أولا أن نستعيد القارئ الذي كان في عهود سابقة، أو نخترع قارئا جديدا، وناقدا جديدا، وربما يأتي اليوم الذي نحصل فيه على ما أسميه: القارئ الداعم، أي القارئ الذي يشتري الكتاب، بمجرد الإعلان عن قرب صدوره، ويجلس متشوقا ذلك الصدور، حتى يقرأ.

الأدب العربي ومأزق الترجمة

في رسالة تقليتها من الكاتبة البريطانية (فيونا أوبرين) التي قامت بتحرير النص الإنجليزي لروايتي صائد اليرقات، بتكليف من الناشر البريطاني، قالت إنها قرأت رواية عربية لأول مرة، وتعرفت من خلالها على جزء بسيط من الوطن العربي، وآدابه، وسعدت بالدخول إلى ثقافة مختلفة، وعاشت مع شخوص لم تكن تعرفهم من قبل، مما حفزها للبحث عن الأدب العربي المترجم لتعرف أكثر، وأضافت بأنها مستغربة بشدة من عدم انتشار الأدب العربي في أوروبا بصورة جادة، أسوة بآداب شعوب أخرى مثل شعب أميركا اللاتينية، والقارة الإفريقية، والأدب الأسيوي الذي حقق به كتاب مثل الياباني هاروكي موراكامو، مكاسب كبيرة في الغرب، زاحموا بها الغربيين أنفسهم، بالرغم من أنها تعرف بأن الأدب

العربي، خاصة الشعر، أدب عريق، والعرب مبتكرون في مجال اللغة، منذ بداياتهم الأولى، وقدموا آدابا فيها الكثير من الخيال والطقوس والحكم، وتعرف جيدا كتابا مثل ألف ليلة وليلة، الذي اهتمت اللغات الأخرى بتبنيه مبكرا، وكان مصدر إلهام كبير لعدد لا بأس به من الكتاب الغربيين الذين استفادوا من أساطيره، وخياله الكثيف.

وفي حوار لي مع المستشرق الأمريكي وليام هتشنز، الذي تعلم اللغة العربية أثناء دراسته لعلم الأديان، واهتم بالأدب العربي منذ شبابه، ونقل أعمالا عديدة لكتاب نعتز بهم مثل نجيب محفوظ، الذي ترجم له ثلاثيته الشهيرة، وإبراهيم الكوني، الذي ترجم له عدة أعمال إلى الإنجليزية، قال بأنه أنفق أربعين عاما من عمره، يعمل بلا دعم، في الترجمة الشاقة، ومحاولات إقناع الناشرين في أوروبا وأمريكا، بنشر أعمال ترجمها بمحبة شديدة، واعتبرها الناشرون، أعمالا مغمورة، قادمة من مناطق مغمورة، ولن تشكل أي إضافة أو مكاسب إذا ما نشرت لديهم وأضاف بروفيسور هتشنز بأنه نجح في إقناع البعض، وكانوا في معظمهم ناشرين صغارا، هم أيضا بحاجة إلى دعم. لكنه لم ييأس وما زال مستمرا في عمله، وأيضا بنفس المحبة.

أيضا أخبرني المستشرق الإسباني المحب للأدب العربي (رفاييل أورتيجا)، الذي عاش سنوات في مصر والسودان، إنه يود لو ساهم في ترجمة أكبر قدر من الأدب العربي إلى لغته، لكن تقف أيضا عوائق النشر، وأن ناشري بلاده أسوة بالناشرين الأوربيين، يؤمنون بنفس الفكرة التي

تقول بأن الأدب العربي، أدب مغمور، ولن يجذب قراء، أو يحقق ربحا، وما استطاع فعله بعد جهد، هو تأسيس سلسلة لذلك الأدب، بالتعاون مع دار نشر صغيرة في غرناطة، عسى أن تكبر تلك الدار ذات يوم، وتتسع السلسلة، أو تلتفت دور أخرى أعظم شأنا إلى ذلك الإنتاج وتتبناه.

ما قالته فيونا أوبرين وما قاله وليام هتشنز وأورتيجا، وما قاله غيرهم، من المهتمين الآداب العربية، ومانقوله باستمرار في كل محفل يتطرق إلى أزمة الأدب العربي في مواجهة الآداب الأخرى، هو أننا مهتمون بشكل كبير، بنقل الآخر إلى ثقافتنا العربية، ناسين دائما أن ننقل ثقافتنا إلى الآخر، بشكل جاد، بعيدا عن المحاولات الفردية المفتقرة للدعم المؤسسي، ما ينتجه الآخر البعيد، مقدر بشكل مزعج لدينا، ومفروض على مؤسساتنا المقتدرة، التي تسعى إلى ترجمته بصورة كبيرة، ونشره بطريقة محترمة، وتسخير كل وسائل الإعلام لمؤازرة انتشاره، بينما ما نكتبه حتى بلغتنا العربية، لا يحظى بهذا الإهتمام المبالغ فيه، وإنما هو اهتمام بسيط معظمه نابع من الصداقات والعلاقات العامة التي يملكها البعض ولا يملكها البعض الآخر، والتي يمكن ببساطة، أن تميت موهبة في مهدها ولا يظهر كاتبها في الوجود الثقافي أبدا، وتحيي ما أسميها لا موهبة، لدى آخر، وذلك بريها كذبا.

هذه المؤسسات المقتدرة التي تعمل على ترجمة ونشر أعمال، لكتاب غربيين، بعضها سبق له أن ترجم ونشر، لماذا لا تعكس نشاطها، أو على الأقل، تسخر جزءا من هذا النشاط، في دعم الترجمة من العربية إلى لغات

أخرى، وتقوم بالدعاية خارجيا، بنفس الحماس، ونفس القوة. ذلك كفيل بأن يلغي فكرة الطمر عن الأدب العربي، ويجعله يحتل مكانته وسط آداب الشعوب الأخرى، ومستقبلا لن يدعي ناشر، أنه يغامر إذا ما قام بنشر كتاب مترجم، لكاتب عربي، وأيضا يحفز المستشرقين المهتمين، لترجمة أجيال أخرى من الكتاب العرب، غير تلك التي اهتموا بترجمتها سابقا.

لماذا لا نحاول حقيقة منازلة الآخر؟

أن ننشئ دورا متعددة، مهمتها النشر باللغات الأخرى ونرى إن كان سيبتسم الآخر في وجوهنا أم يعبس؟، إن كان بيته مفتوحا لاستقبال ثقافتنا أم مغلقا في وجه تلك الثقافة؟، وقد سعدنا بأن مؤسسة قطر للتربية والثقافة والعلوم، أوجدت منذ عدة سنوات، فرعا لدار بلومزبري البريطانية الكبيرة، للاهتمام بترجمة الأدب العربي، إلى الإنجليزية، وقامت الدار بالفعل بترجمة عددا من الكتاب، ونشرهم في الغرب، بطريقة لائقة لكن مهمة تلك الدار، ما زالت صعبة، ولا تستطيع بمفردها تحمل ترجمة الأدب العربي كله، لكن قطعا يساهم عملها، مع مجلة بانيبال الفصلية، التي تصدر بجهود محدودة في لندن، وتترجم مقاطع تعريفية من الأدب العربي منذ سنوات في خلق وجود ما خارجيا، ربما يلفت النظر. أيضا في العام الماضي، طرح معرض الشارقة المهم للكتاب، مبادرة الترجمة المدعومة بمبالغ محددة، وذلك بترشيحه لعدد من الأعمال العربية، ومحاولة تعريف الناشرين الأجانب بها، لكن ذلك لم يحقق نتائج كبيرة، وأعتقد أن

ذلك أيضا بسبب جهل الناشرين الأجانب للأدب العربي، الذي لن يمحي في تلك الأيام المعدودة من زمن معرض الكتاب.

لقد قرأت عددا كبيرا من الكتب المترجمة، و لم أحسها أكثر تفوقا من الكتب العربية، أو مثلا يحتذى به، وقرأت بعض الكتاب بالإنجليزية، ومؤخرا قرأت فصولا من رواية للألمانية هيرتا ميلر، التي حصلت على جائزة نوبل منذ عدة سنوات، و لم أعثر على كتابة معجزة أو كتابة لا يستطيع كاتب عربي أن يكتبها، وربما بالتنوع الثقافي الذي نملكه، تكون كتابتنا ذات طعم مختلف وخاص.

الخلل إذن في التلقي العربي، أو التبعية الثقافية اتي فرضناها على أنفسنا، و لم تفرض علينا، ما يسخر الكرم العربي كله، من أجل الضيف القادم من بعيد، ولا أدنى اهتمام بصراخ أهل البيت وهم يتضورون جوعا. الخلل الكبير في ابتسامة التغاضي التي تتسع في وجه الغريب، وتكش حتى تصبح عبوسا في وجه ساكن البيت. ولكي يخرج الأدب العربي من عزلته، لا بد من خطوات جادة، لا أعتقد أنها صعبة، أو تجاور المستحيل.

عن الكتابة والاغتراب

لا شك أن اغتراب المبدع عموما، خاصة الكاتب، أو هجرته خارج وطنه الأصلي، لا يشبه اغتراب، أو هجرة أي شخص عادي لا علاقة له بالإبداع، هذا الاغتراب، دائما ما يغذيه بالحنين إلى الوطن، وقطعا يدفعه لكتابة نصوص متميزة، وقودها من ذلك الحنين الكبير لوطن ولد وتربى فيه، وعاش فيه أياما حلوة ومرة، قبل أن يفارقه إلى حين، أو إلى الأبد.

هذا الأمر ينطبق على المبدعين الذين يضطرون للهجرة بسبب ظروف اقتصادية، أو سياسية، حرمت عليهم البقاء في الوطن، أو الذين يختارون الهجرة بلا أي سبب محدد، ويعودون من حين لآخر، لإلقاء نظرة على أوطانهم، وتتبع تطورها أو تدنيها في غيابهم. وإذا ألقينا نظرة سريعة، على كثير من النصوص العربية والعالمية، التي كتبها مبدعون اغتربوا عن

بلادهم، واتخذوا بلادا أخرى، أوطانا بديلة، مثل التشيكي ميلان كونديرا، واللبناني أمين معلوف، والمغربي الطاهر بن جلون، وجارسيا ماركيز في جزء من حياته، حين عاش مراسلا صحفيا في أوروبا، نجد تفاصيل مدهشة، لذلك الوطن الذي تركوه من خلفهم، تفاصيل ربما لا يكتبها مبدعون يعيشون بالداخل ويصادفونها يوميا أثناء حياتهم وتجوالهم، ولا يولونها اهتماما كبيرا، وتتأجج مخيلاتهم إلى ما وراءها للعثور على تفاصيل أخرى، غير موجودة أو غير ممكنة، لرصدها في كتابتهم، باعتقاد أنها تشد القراءة أكثر.

المشكلة هنا تكمن في مسألة العادية، التي تؤثر كثيرا في عمل المخيلة، أي ذلك الزخم اليومي المعتاد الذي، لن يبهرهم كثيرا، ولن يصلح في رأيهم، مادة لنص ممتاز، يطالعه القارئ المتوفر في الداخل، ويندهش، لأن القارئ نفسه جزء من ذلك الزخم اليومي، ومحرك أساسي له، ولا يحتاج لمن يكتبه له حتى يقرأه. وبهذه النظرة التي أعتبرها غير منصفة، تضيع عوالم ثرية ربما تدهش حتى ذلك القارئ المتوفر فيها، لأن القارئ ليس مبدعا أساسيا، بالرغم من أن وجوده، ضرورة كبرى للإبداع، وهو ليس بالضرورة، منتبها لكل شيء يمر من حوله، وهو يطارد الحياة، ليعيش، ولا يملك يقينا حس المبدع أو ذاكرته المميزة، ليصنع أحداثا يقرأها لنفسه.

وقد اعتدت حين أعود إلى وطني، في عطلاتي السنوية، أن أتلمس تلك العوالم، التي صورها الحنين، بصورة مدهشة، وأوقدها في نصوصي، أحيانا أجدها بالفعل تستحق عناء كتابتها، وأحيانا أجدها عادية، فقط صورت لي غير عادية. أجلس إلى بائعات الشاي اللائي كتبت عنهن

في عدد من النصوص، أستمع إلى عراك الحياة من حولي، وأصادف شخصيات، ربما كتبتها أو كتبت شبيها لها، أقضي العطلة في أغلبها، أقارن بين ما كتب وما يمكن أن يكتب، وربما أطالع شيئا من إنتاج زملاء يعيشون في الوطن، وأبحث داخله عن الإدهاش، وحين أعود إلى مغتربي، أحس بأنني أملك كنوزا من الحكايات والشخصيات، وبدافع الحنين أيضا، أكتبها، وتبدو لي قصتي مع عسكري المرور عبد الله كوة، الذي حرر لي مخالفة، لدخولي في طريق ذي اتجاه واحد، لا أعرفه، أو الفتاة التي تعمل ضابطا في إدارة الجوازات، وتابعتها سنوات، منذ كانت فظة، وتغيرت بعد زواجها، أو مشاهدتي للرجل الذي كان يصيح ويمزق ثيابه في وسط مستشفى الخرطوم، قصصا مدهشة، أضيف إليها شيئا من الخيال، بالرغم من أنها قصصا عادية، تتكرر باستمرار. ومازل يأسرني وصف ماركيز، للحنين الذي يملك أحاييل، لا يمكن الفكاك منها، في روايته الحب في زمن الكوليرا، حين تحدث عن الطبيب الذي عاد إلى بلاده بقناعة تامة، تاركا حياة، مرفهة في أوروبا، ليفاجأ في الميناء حين رست الباخرة، بالحر والرطوبة، ومنظر الذباب، على أنوف الأطفال، والنساء المتسخات، في زينة رخيصة، وهن يرضعن أطفالهن بأثداء ضامرة، ثم ليعود إلى وعيه في تلك اللحظة، ويلعن الحنين وأحاييله.

في الكتابة العربية توجد تجارب كثيرة، للكتابة المغتربة التي تعتمد على الذاكرة والحنين، منها تجربة عبد الرحمن منيف، وتجربة الروائي الليبي إبراهيم الكوني، تلك التجربة الكبيرة المتسعة المدهشة، التي صاغ في داخلها عشرات الكتب، و لم تكن في معظمها عن أحداث خارج الوطن،

بينما هو في الحقيقة، يقيم خارج الوطن منذ زمن طويل. تلك الأساطير الغنية وذلك الموروث الصحراوي المدفون، والذي في اعتقادي، لم ينبشه الذين بالداخل كما نبشه، و لم يظهره للعا لم أحد مثله. ولن يعيد حتى الذين ما زالوا يعيشون في الصحراء، إعادة إنتاجه كما فعل. فكتابات مثل الورم والمجوس وخريف الدرويش، وغيرها العشرات، من الروايات والسير، والحكم، إنما هي حصيلة لحنين جارف إلى تلك العوا لم الماضية، تدفع للكتابة عنها بلا خيار آخر، وتدعمه الذاكرة المبدعة التي لا يسقط من جرابها خبر، ولا تتسرب من شقوقها قطرة مطر واحدة هطلت ذات يوم في صحراء جافة، أو عثرة لبعير، احتك بحجر، وأظن بأن تجربة الكوني، بقدر ما أدهشت قراءه العرب، والغربيين، بعد أن ترجمت أعماله، يمكن أيضا أن تدهش قراء الداخل، أو سكان العوا لم التي صاغها، حين يجدون ما لم ينتبهوا إليه، قد انتبه إليه مبدع مغترب عن الوطن، والذي قد لا يمثل قيمة كبيرة لديهم، قد أصبح ذا قيمة عالية.

منذ عدة أشهر، وأثناء وجودي في السودان، سألتني قارئة، عن تفاصيل كثيرة كتبتها، في سيرة لي اسمها مرايا ساحلية، قالت إنها تمر يوميا بواحدة شبيهة بحمدة البيضاء، تلك المتسوولة التي كتبتها، ويسكن بجوارهم، في بيت مهجور، مشرد مثل عزيزو، لا يعرف أحد أصله، يقرأ الكتب باستمرار، ويلقي الشعر بلا مستمعين له، لكنها لم تكن تظن أبدا، أن تلك شخصيات تصلح لكتابتها في نصوص، وانتبهت لها حين كتبت.

بالطبع ليس لي جواب آخر، سوى ما أكدته، وأكده ماركيز، وآخرون، عن سطوة الحنين، ودعم الذاكرة، لدرجة إرهاقها. كل ما يكتب بدافع

الحنين، يترك أثرا، خاصة السير، لأن الحنين داخلها ومن حولها، يكون في أوج اشتعاله.

أسماء الشخصيات في الرواية

أعتقد جازما وبعد سنوات طويلة من القراءة والكتابة، بأن أسماء الشخصيات في اي عمل قصصي أو روائي، يجب أن تكون مطابقة للشخصية، بمعنى أن الاسم يجب أن يشبه الشخصية في مكوناتها وصفاتها، وبالتالي يكسبها قوة، وربما يساعد ذلك في نقشها بعمق في ذهن القارئ الذي يطالع النص بعد ذلك، فلا تضيع منه أثناء التوغل في القراءة، وظهور شخصيات أخرى متعددة، بحيث لا يحتاج إلى الرجوع بين حين وآخر إلى الصفحات الأولى، ليتذكر عمن يتكلم السارد. أيضا يجب أن يكون الاسم في نظري ذا إيقاع خاص، وملائما لبيئة الحكي وزمنه، فلا يمكن أن تكتب مثلا اسما لفتاة اسمها تسابيح أو هالة، ورجلا اسمه عادل أو معتز، في رواية تدور أحداثها في القرن التاسع عشر، وبالمقابل، لا يمكنك استخدام أسماء ذلك الزمان، في نص

حداثي، تدور أحداثه في الوقت الحاضر. إضافة إلى البلد الذي تدور فيه الحكاية، والذي يملك أسماءه القديمة والحديثة معا، وبالتالي من المفترض أن لا نعثر على اسم مثل كاظم أو جواد، وهما أسمان عراقيان مألوفان، يحملهما بطل من السودان. وقد اعتدت حين أقرأ كتابا، أن أسعى لتلك المقارنات، أقارن الأسماء بالشخصيات المرسومة، ومكانها وأكون وجهة نظري الخاصة، وكنت أحيانا أستغرب حين أجد اسما يعتبر جديدا تماما، مستخدما في رواية كتبت منذ زمن بعيد، أو كتبت منذ زمن قريب، لكن بأحداث تدور في الماضي البعيد، وهذا ما حدث معي حين وجدت اسم بطلة رواية يوميات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم التي كتبت في نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي، اسمها ريم، بينما هذا الاسم يعتبر جديدا، ولا أدري كيف تسرب إلى رواية كتبت في ذلك الزمان. لكن في الغالب يبذل الكتاب جهدا، لجعل الأسماء مطابقة، وذات إيقاع، وتكتب حسب الطبقة الإجتماعية للشخصية المحكي عنها، ولن يستغرب أحد اسم الزين في رواية عرس الزين للطيب، لأنه كان مطابقا، أو وليد مسعود في رواية جبرا الشهيرة، لأنه بالفعل يشبه البطل في كل شيء.

أذكر في ورشة للكتابة، حضرتها كمشرف، وشارك فيها عدد من الكتاب الشباب، أن اعترضت على اسم بطل القصة، لأحد الكتاب المشاركين. كان الاسم في نظري رقيقا، لينا ولا يشبه اسم البطل العصبي الشرس، بحيث أنني لم أستطع أبدا أن أتصور صاحب ذلك الاسم بهذه الصفات، أو هكذا صفات، تلبس مثل هذا البطل، وكان أن اقتنع الكاتب

بوجهة نظري، وقام بتغيير الاسم، واستقامت الشخصية في نظري بعد ذلك.

بالنسبة لي أحاول دائما بذل جهد، في كتابة اسم مطابق، سوى لسلوك الشخصيات، أو صفاتها، أو توافقها مع زمن الحكي، ليست مسألة اختيار أسماء غريبة، كما يقول بعض القراء والنقاد، ولكن هاجس الإبقاء على النص واقفا مسنودا على كل الركائز، وبالتالي أركز في البحث عن الأسماء المساندة، أحيانا ألجأ إلى ذاكرتي وأستعين بأسماء عرفتها من قبل في حياتي، مثل أسماء الأهل أو الجيران، أو الذين عبروا بي في حياتي العملية، وأحيانا ألجأ إلى الكتب التي ترصد أسماء للآباء لاختيار منها ما يناسب مواليدهم، مع شرح واف للاسم ومعناه، وصفاته، وأيضا ألجأ للإنترنت، وفي معظم الأحوال يكون التقاطي للاسم مصادفة من الراديو أو التلفزيون، أو شخص صادفته، أثناء كتابة رواية، أرقني فيها اسم ضائع. وحين كنت أكتب رواية لي اسمها أرض السودان- الحلو والمر، كنت أبحث بشدة عن اسم نسائي إسباني لإحدى الشخصيات العابرة في النص. هذه ليست معضلة ويمكن الحصول على أي شيء من داخل الإنترنت بسهولة، لكني بالرغم من ذلك لم أستسغ الأسماء التي جاءتني من البحث، ثم لتحل المشكلة تلقائيا حين راسلتني إسبانية اسمها هيلينا دا سيلفا على الفيس بوك، طالبة ضمها إلى قائمة الأصدقاء، وكان اسمها إيقاعيا وسلسا، ويشبه الشخصية المرسومة تماما، والأهم من ذلك، إنه وجاء في الوقت المناسب، ومن ثم استخدمته في الرواية بعد أن استأذنتها، وفرحت بشدة، ولا أعرف لماذا يفرح الناس

حين تستخدم أسماؤهم في الكتابة، حتى لو كانت الشخصية التي تحمل الاسم ليست سوية.

ما انطبق على هيلينا دا سيلفا، انطبق أيضا على فلابيل عسكر، هندي يعمل معنا في وظيفة بسيطة، وأردت اسمه لشخصية رجل معمر، يعيش في أرض السودان منذ مئة وخمسين عاما. شرحت الأمر للرجل الذي لم يكن أصلا يعرف موضوع كتابتي، ولا تخيلني أزاول نشاطا آخر غير عملي الذي يعرفه، فوجئت به يسألني أسئلة كثيرة، ويؤكد لي بأنه لا يدخن ولا يتعاطى المنكرات، و لم يغازل امرأة في حياته، وتزوج بطقوس الهنود التقليدية، ويريد ذلك الهندي المعمر الذي أكتبه أن يكون مثله، ثم طلب مني أخيرا أن أهديه نسخة من الكتاب حين يصدر، وأضع له خطا في كل سطر يحمل اسمه، ولو ترجم ذلك الكتاب للغة الهندية، سيكون سعيدا بقراءته.

وأذكر أيضا أنني حين كنت أكتب روايتي مهر الصياح، استوقفني اسم أحد المجندين في كتيبة الظهوريين التي تختص بحماية السلطان رغد الرشيد، أحد الشخصيات المهمة في النص، كنت أبحث عن اسم قوي يحمله رجل قوي، واستغرق الأمر أياما من دون أن أعثر على اسم مناسب، ثم جاء رجل أسيوي ليعالج ابنه البالغ من العمر ثماني سنوات في ذلك الحين. كان اسمه عجيب تمبولي، وكان اسما مطابقا لشخصية الظهوري بشكل لا يصدق، ولو كان ذلك المجند حقيقيا لما كان اسمه غير عجيب تمبولي. استلفت الاسم على الفور، وأخبرت الرجل، الذي هنأ ابنه

بقبلة كبيرة، وقد كبر عجيب الهندي الآن ويدرس في الجامعة، هو لا يشبه اسمه بأي حال من الأحوال، لكن الاسم يشبه رجلا آخر، هو الظهوري الذي يحمي السلطان، داخل النص.

أخيرا أعتقد أن الكتابة في مجملها، تحتاج إلى تركيز كبير، وقد أصبح القراء من التمكن، بحيث ينتبهون بالفعل لكل صغيرة وكبيرة، في نص يقرأونه، ويمكن بسهولة أن يعترضوا على اسم لا يجدونه مطابقا للشخصية. الرواية

البوليسية في الأدب العربي

لعلنا جميعا نلاحظ أن الأدب العربي بأكمله، يكاد يخلو من ما اصطلح بتسميته الرواية البوليسية، أي تلك التي تتحدث عن جريمة غامضة حدثت، وتجري محاولات حل غموضها طوال النص، أو تلك القائمة على صراع استخباراتي بين دول متعددة، يعمل عليه الكاتب حتى النهاية. مما يضع القارئ تحت وطأة نص تشويقي، ومثير، لا يستطيع إلا أن يتتبع وقائعه، يلهث خلف الغموض محاولا استنتاج النهاية، والتي غالبا ما تكون نهاية أخرى غير التي يضعها بنفسه، ذلك أن الكاتب يعمد إلى التضليل، ويضع النهاية غير المتوقعة.

الأدب البوليسي كما هو معروف، من أكثر الآداب شيوعا في الغرب، وقد نشأ مبكرا، ربما في القرن السابع عشر أو الثامن عشر،

وبالتالي أصبح معتمدا في ذهن القراءة أكثر من كل الأداب الأخرى، وقد ظهرت فيما بعد شخصيات لمحققين اشتهروا بشدة، حتى ليكادوا أن يصبحوا حقيقيين مثل هركيول بوارو في روايات البريطانية أجاثا كريستي، والمفتش جاليمار في الروايات الفرنسية التي يقوم ببطولتها اللص لوبين، وتجسدت كثير من تلك الشخصيات بملامح تبدو شبيهة بملامحها المرسومة في الكتب، حين تحولت الروايات إلى أفلام سينمائية. وفي السنوات الأخيرة، تطور ذلك الأدب بشدة، واكتسب شعبية أكثر، وظهر نجوم لمثل هذه الروايات، مثل الأمريكي استيفن كنج الذي تتحدى مبيعات كتبه، كل مبيعات الكتب الأدبية الأخرى، وله قراء لا يمكن لأي كاتب أدبي، أن يظفر بقليل منهم.

إذا ألقينا نظرة سريعة على الأدب العربي، وباستثناء الكتب التي تخاطب الأطفال والمراهقين، وكتبت بأساليب غاية في البساطة، وتلك التي كتبت للبالغين عن الجاسوسية، مثل ما كتبه المصري صالح مرسي، لن نجد رواية بوليسية كاملة، ربما بعض اللمحات هنا وهناك، وأجزاء قليلة من الغموض الذي يصنف بوليسيا، ولا شيء آخر، لا يوجد محقق سري يطلع بحل لغز معقد، ولا لص ظريف، يسرق من أغنياء الشعوب، لصالح فقرائهم، ولا مغامرة كبرى، تمثل مطاردة، يرصدها نص في الشوارع.

في رأيي الشخصي وحين أتحدث عن خلو الأدب العربي من هذه الكتابات، برغم قدمها في الغرب، أجد أن الأمر منطقي جدا ولا يدعو للغرابة، باعتبار أن اختلاف المجتمعات في بنائها وحركة شعوبها وعاداتهم وتراثهم، بالضرورة يؤثر على الأدب كثيرا، ولطالما وصف الأب بأنه مرآة

للشعوب، يعكسها بألوانها التي عليها.

نحن في بلادنا مثل كل شعوب الأرض، نمتلك خامات ربما يصلح بعضها لكتابة الرواية البوليسية، لكننا لا نملك أدوات كتابتها، نملك شيئا من الجريمة واللصوصية، والبحث والتحري، لكننا لا نملك الخيوط التي تحول ذلك إلى رواية، ولطالما حدثت عندنا جرائم، شبيهة بالتي تحدث في الغرب، وتوحي بكتابتها، لكن تقنيات الكتابة لا تلائم مجتمعنا أبدا، ولو كتبت، لربما لن تجد قارئا يصدقها، وبالتالي لن تكتب.

أيضا مسألة الغطرسة الكتابية التي تنتشر لدى الكتاب العرب، من ناحية تنميق اللغة، واختراع التراكيب الغريبة في اللغة العربية، فالأدب البوليسي في معظمه، إن لم يكن كله، أدب تسلية ليس إلا، نوع من الكتابة يحمله القارئ إلى مخدعه ليتسلى قليلا قبل النوم، ولا يحب الكاتب العربي أن يشقى في رواية، تتحول إلى مادة ترفيه في النهاية. ما نكتبه يحمل أفكارا تلائم مجتمعنا، وهي أفكار في الغالب تؤدي في النهاية إلى نص بعيد تماما عن التسلية، ويحتاج في قراءته إلى مجهود شبيه بالذي بذله الكاتب نفسه.

آتي إلى مسألة المخيلة البوليسية التي يمتلكها الكاتب الغربي، الذي نشأ في مجتمع مكتنز بالأدوات الفاعلة، أو التي تنشط تلك المخيلة، هو يرى الجرائم المعقدة التي ترتكب، يشاهد المتحرين وهم ينشطون من حوله، وربما يتغلغل في علب الليل وعوالم الجريمة المتعددة، الموجودة بكثرة من أجل أن ينشط خياله ويكتب. توجد عصابات المافيا المحفزة للكتابة

عنها، عصابات الخطف والمخدرات والرقيق الأبيض، توجد عناصر الخلل كلها التي تأتي بأدوات الكتابة من دون أي عناء، وفي هذا العصر، عصر التكنولوجيا الحديثة، يمكن استخدام ما يخطر وما لا يخطر على البال من أجل كتابة رواية. وخلاصة الأمر أستطيع أن أقول بأنه توجد جريمة منظمة في الواقع، وما على الكاتب إلا أن ينقلها إلى الورق، ليصنع كتابا ومن ثم يصنع قارئا هو في الأصل موجود في كل تلك الأحداث، لكنه مع ذلك لا يستطيع مقاومة قراءتها كتابا.

من أنواع الرواية البوليسية الرائجة أيضا، تلك التي تكتب في السجون أو عن السجون، تلك التي تتابع متهما بريئا، أدين في جريمة لم يرتكبها، وتذهب به إلى حبل المشنقة، أو تبعده عن الحبل في آخر لحظة. هذا النوع يبدو شديد الجاذبية بدليل وجود روايات عديدة تناولته، وأعلل ذلك بمسحة التعاطف التي يبديها القارئ مع الشخص المدان، خاصة إذا اشتم رائحة براءته قبل أن ينهي النص، وأذكر رواية استيفن كنج المسماة: الميل الأخضر، تلك التي تتحدث عن رجل من السود، يملك قوى خارقة في شفاء الآخرين، وأدين بقتل طفلتين، وذهب إلى الميل الأخضر، وهو الطريق المؤدي للمقصلة، وقد كسب ذلك المدان تعاطف سجانيه قبل أن يكسب تعاطف القراء كلهم، وأيضا تعاطف المشاهدين في الفيلم الذي أنتج عن تلك الرواية، ولا أستطيع أن أقول أن رواية استيفن هذه رواية تسلية فقط، فقد صيغت ببراعة، وجسدت ألما إنسانيا عميقا يحسه القارئ طوال قراءته لها. وأقول أن مثل هذا البطل قد يوجد في مجتمعنا بنفس المواصفات، لكن لا أدوات تكتبه، لأن الأدوات التي أدانته عندنا في غاية

البساطة، والسجن الذي دخله، لا يشبه سجنه الأمريكي، وأيضا المخيلة التي ستكتبه، ليست معدة لكتابته على الإطلاق.

أخلص إلى أن جنس الرواية البوليسية، لن يكون من بين أجناس الكتابة العربية الشائعة، في أي يوم من الأيام، وأي محاولة لكتابة رواية بوليسية بتلك الأدوات الفقيرة، والمخيلة غير المعدة جيدا، سيكون ضربا من المغامرة التي تبعد القارئ عن القراءة العربية، أكثر من ما تقربه إليها.

ذاكرة الكتابة

أعتقد أن من أهم الأشياء التي ينبغي على الكاتب أن يمتلكها، وهو يمضي في سكة الكتابة، خاصة من احترف كتابة الأعمال الواقعية، أو الرواية الممزوجة بالسيرة الذاتية بشكل أو بآخر: ذاكرته. تلك العصا السحرية التي تمكنه من نبش الماضي بسهولة واستخراج ما يصلح لكتابته وما لا يصلح أيضا من أجل تعديله وتنقيته وإدراجه في النصوص التي ينتجها. ولطالما كانت الذاكرة المدربة جيدا، مفتاحا لا يمكن الاستغناء عنه في كل كتابة ناجحة.

الذاكرة هنا لا تقتصر على حياة الكاتب فقط، أي ما عاشه من أيام مضت بخيرها أو بشرها، ولكن أيضا في استدعاء الخبرات التي اكتسبها بعد أن كبر، مثل دروس اللغة والعلوم المتشعبة التي تعلمها في المدارس،

وقراءاته لمن سبقوه، وأثروا في كتابته، ومن انتقدوا أعماله واستفاد من نقدهم، وأيضا من قرأوا أعماله من القراء العاديين، وأدلوا برأي فيها، سلبا أو إيجابا.

لكن هل بالضرورة تولد الذاكرة القوية مع كل مبدع، مثل موهبته؟

لا أعتقد ذلك، فالموهبة ثبت أنها تولد مع المبدع مع أول نفس في الحياة، وترسم له الطريق بعد ذلك، هناك من يولد شاعرا ومن يولد رساما ومن يولد كاتبا، وما عليه سوى اتباع المسار الذي رسم له، وتقوية خطواته بعد ذلك باكتساب المعارف التي تخص ذلك الطريق، بعكس الذاكرة التي قد تكون شحيحة بعض الشيء، ولكن بكثير من التدريب، يمكن تقوية حبالها لانتشال ما هو بعيد في الماضي، ويستحق عناء انتشاله، وقد ساهم عشق الشعر وحفظه وتداوله في الماضي لدى أجيال سابقة من المبدعين، في تقوية ذاكراتهم بشدة، كذلك أولئك الذين عاصروا زمن الكتاتيب، أو الخلاوي بلغة أهل السودان، حيث يدرس القرآن، ويحفظ بواسطة الشيوخ، اكتسبوا ذاكرات مدربة، سترتهم كثيرا في ما بعد، وسدت فقرات النسيان التي ربما كانت تتحاوم في ذاكراتهم، وأعتقد أن كتابا مثل الأيام لطه حسين، من تلك النماذج التي كتبت بذاكرة خصبة للغاية، لم تنس أي تفاصيل كان من شأنها أن تثري الكتابة، وكذا أعمال أخرى لمجايليه، وقد شاهدت الروائي الراحل خيري شلبي قبل وفاته بعدة أشهر، يقرأ شعرا جميلا حفظه من ستينيات القرن الماضي، بذاكرة صافية، ولم أستغرب من ذلك، وأعرف كل ما كتبه ذلك الحكاء العظيم معتمدا فيه على ذاكرته.

في قراءة متأنية لما تصطاده الذاكرة الإنسانية عادة، وتحتفظ به لاستدعائه عند الضرورة، استوقفتني السير الموجعة، أكثر من تلك المفرحة، بمعنى أن ما يبقى طويلا في الذاكرة، هو ما آلم صاحبها أو أحدث صدمة بداخله، مثل معاصرته لحرب أهلية أو مجاعة أو كارثة ما، أو تعرضه شخصيا لحادث طارئ، ويوجد في الطب النفسي ما يسمى أعراض ما بعد الحادث، تلك التي تستعيدها الذاكرة مرارا ولا تمل من استعادتها وغالبا في شكل كوابيس ليلية، لذلك تجد مادة خصبة عند الكتاب والشعراء الذين عاصروا الحروب العالمية وتشردوا أو فقدوا أحباءهم بسببها، ومن عاشوا حروب أفريقيا الأهلية، والذين عاصروا نكبة فلسطين في بدايتها، وحرب العراق الحديثة، وكل ذلك أنتج أدبا رفيع المستوى، ليس في فنياته بالضرورة، وإنما في غنى الذاكرة التي دلقته بعد ذلك. وكلنا يعرف ما كتبه شعراء مثل معين بسيسو وكتابا مثل إميل حبيبي، عن الأزمة الفلسطينية.

من العوامل الأخرى في تدريب الذاكرة كما أعتقد، مسألة الاغتراب، أي أن يفارق المبدع وطنه لفترة طويلة، هنا تأتي مسألة الحنين القوي للوطن، مما يوقد الذاكرة بشدة، يجعلها تستدعي كل لحظة عاشها المبدع في الوطن، حتى لو كانت بلا معنى، مثل أن يتذكر طفولته في الحواري والأزقة، وسط أصدقاء يستدعي ملامحهم أيضا، يتذكر حبه الأول لفتاة الجيران، ويتذكر أي سلوى عابرة يمكن أن تطفئ الحنين، هنا يعمل الكاتب بلا وعي منه، في تدريب ذاكرته باستمرار، وبالتالي يحتفظ بمفتاحه السحري، جديدا ولامعا، وجيدا لاستخدامه في أي كتابة يكتبها. لقد تعرض ماركيز لمسألة الحنين هذه في روايته: الحب في زمن

الكوليرا، ووصفها بأنها تملك أحاييل شرسة ومتنوعة، لجر المغترب إلى وطنه، وأضيف لوصف ماركيز، أنها تملك أيضا مزيلا للصدأ عن الذاكرة، ورواية مثل موسم الهجرة للشمال للطيب صالح، التي كتبها أثناء اغترابه الطويل في لندن، الذي استمر حتى وفاته، أعتقد جازما أن الحنين أثر فيها بشكل أو بآخر، وأوقد ذاكرة مبدعها لتخرج هكذا رواية خالدة، وروايته عرس الزين أيضا، كانت عن شخصية عاصرها صغيرا، وكتب تفاصيلها كلها في مغتربه البعيد.

في رواية لي اسمها العطر الفرنسي، كتبت عن مسألة تدريب الذاكرة لدى بطل الرواية علي جرجار، الذي كان يقاوم الشيخوخة بذلك التدريب اليومي، كتبت أحداثا تذكرها أثناء انهماكه في تدريب ذاكرته مثل زجاجة عطر الريفدور التي سقطت من رف في بيت أسرته وانكسرت، مثل شاي سقطت عليه ذبابة ذات مساء، وكنت بلا وعي مني، أكتب بعض الأحداث التي أتذكرها من طفولتي شخصيا. والذين قرأوا رواية: قصة عن الحب والظلام، تلك القصة المدهشة للإسرائيلي عاموس عوز، لا بد يستغربون من تلك الأصداء المتلاحقة من زمن بعيد، لطفل جاء إلى أرض الميعاد بصحبة أهله، وعاش طفولة غريبة، في وطن أقنعوه بأنه وطنه، وهو يرى أهل الوطن الحقيقيين، منفيين في وطنهم. أعتقد أن ذلك كان وليد ذاكرة مشعة، دربها عاموس على أن تشع بتلك العنصرية، وتلتقط كل ما كان من شأنه أن ينتج أدبا مواليا تماما للمشروع الإسرائيلي الكبير.

العزلة أيضا من وسائل التعليم الكبرى التي تدرب ذاكرة المبدعين. العزلة بمعناها الجسدي والنفسي، أن ينعزل المبدع عن الخارج المحيط به،

ويبدأ في تشييد عالم داخلي خاص به، وليس ثمة صلة وصل بينه وبين الخارج، سوى الذاكرة التي تحصل على تدريب جيد بلا شك، وتعتبر السجون من الأماكن التي تتيح العزلة بجدارة، ومن قرأ أدب السجون يقرأ بجانب معاناة السجين اليومية، حصاد ذاكرته التي كانت تحلق في الماضي باستمرار، وتلتقط أنفاسا من الحرية، تنفس بها المبدع ذات يوم، وأظن أن صنع الله إبراهيم من الذين كتبوا عزلة السجون بذاكرة مضيئة، وكذا أدباء آخرون من تونس والمغرب وسوريا.

الدكتور

كان يونس تلميذًا ثانويًا حين التقيته، ولد ممتلئ الجسم، يكمن في قلبه عشق للطب والأطباء فاق كل عشق آخر.. حتى تحول في النهاية إلى "ببلوغرافيا" حية تحمل في عروقها سِيرًا ذاتية لما يزيد على عشرة آلاف طبيب.. كانوا أصدقاءه المقربين، انتقاهم من عدة مستشفيات عاصمية وإقليمية زارها مجبرًا بالمرض أو متعمدًا بعشقه الخاص، وبحث عنهم في كتب الجامعات، والدوريات المترجمة، والحوارات التي يجرونها من حين لآخر في الصحف والإذاعة.. ولد ممتلئ الجسم يسكن في حيّ السكة الحديد.. في واحد من بيوت الطبقة الفقيرة.. يمضي النهار دارسًا في صفه الثانوي، والمساء متسكعًا في وسط المدينة، يعرف كل عيادة أنشئت، وكل عيادة أغلقت، وكل طبيب تخرج، أو تزوج أو مات.. وحين يأتي الليل

يستدعيهم كلهم.. يساعد حالمًا في عمليات أُجريت، ومحفّات حُملت، وأنّات رُتقت بمهارة أصدقائه الطبيين.. ويصحو في الصباح وما زالت أحلامه تقطر، تشوش تحصيله في الحصص المبكرة..

التقيت يونس في واحد من عنابر الباطنية، كان ملازمًا شقيًّا لإحدى شقيقاته التي أرقدَتها حمى "التيفويد" في ذلك العنبر. كان يتلصص على المحاليل، ووصفات الدواء، وأخطاء الممرضات، ويستاء من رائحة المطهر الشرسة، وفي كثير من الأحيان كان ينهب أعراض الأدوية الجانبية من علب الدواء، يتقيؤها في وجوهنا، وربما أعطانا أمثلة منها في شحوب شقيقته، وانعدام شهيتها، وصداعها الغزير، وحين أردت أن أسميه "الدكتور"، ضحك مستخفًا.. فقد كان يحمل ذلك اللقب بالفعل.. يحمله في صفه الثانوي، وبيوت الطبقة الفقيرة في حيّ السكة الحديد، وفي عنبرنا النسائي الذي يلازم فيه شقيقته أيضًا.. كنت أستغرب من ذلك النبش الغريب لتلميذ ثانوي، ولم أكن أجد في المهنة الوعرة التي نمتهنها أي بريق يغري بالتهام سيَرِنا الذاتية.. لم نكن "محمد وردي"، ولا "الكابلي"، ولا عبد الحليم، ولا "ديانا روس"، لنرتع في أحلام صبية..

ذهبت شقيقة الدكتور من عنبرنا معافاة من التيفويد.. لكن الدكتور لم يذهب، كان يوجد في عنابر أخرى يقطنها أقارب وجيران، ومعارف.. يوجد في جلسات المساء أمام سكن الأطباء، وفي جمعية أصدقاء المرضى التي أنشأها أرستقراطيون ساحليون، وقدمت أشياء معنوية في زمان ما.. ولد ممتلئ الجسم يحكي عن البروفيسور داوود، وبشير أرباب، وأحمد

البنهاوي، وخيري السمرة، وتجبير العظام الهندي، وطب العيون في إسبانيا.. وتلك المصحة السويسرية التي أنشأها جراح تركي، ولم نكن نعرف عنها شيئًا.. وحين ترتبك المستشفى بحادثة طريق، أو جروح نافذة، أو هستيريا جماعية لأحد الأمراض، كان يبدو في وسط كل ذلك دكتورًا أصيلًا.. يرتبك، ويتجهم، ويعدو، وربما صرخ نفس الصرخات التي كنا نصرخها أمام تباطؤ المساعدين.

في أحد الأيام وجدت الدكتور في أحد عنابر الجراحة، لم يكن زائرًا، ولا مرافقًا، ولا صديقًا للمرضى، ولا عاشقًا منحشرًا في كارثة محلية.. كان ملقًى على أحد الأسِّرة المتّسخة، وقد اختفى جسده تحت لحاف داكن، والتفَّت حول رأسه خرقة ممزقة، كان يبدو أنها تضغط على الرأس لإيقاف انفجار ما.. اقتربت منه، إنه الدكتور يونس، ولد ممتلئ الجسم يسكنه صراع ما، وتبدو دمعات صبية تطل برأسها من عينيه العاشقتين.. كانت أسرته مبثوثة حول صراعه، وأخته التي لازم شحوبها في وقت ما، الآن تخطو بمنديل نحو عينيه، وتحكِم ضغط الملاءة حول الرأس.. مددت يديّ إلى ملفه المعلق حول الصراع.. وقرأته.. وارتعبت، كان مصابًا بورم في المخ.. وكان يحتضر.

حين دفنّا الدكتور يونس، دفنّاه كزميل عزيز، تعطلت كل الخدمات في المستشفى الساحلي، وبقيت خدمات الطوارئ وحدها، كنت وأنا أسير خلفه، أحس بوجود تلك "البيبلوغرافيا"، وأسمع بكاء طبيًّا لعشرة آلاف طبيب لّمهم من مستشفيات عديدة، ودوريات مترجمة، وحوارات في الصحف والإذاعة.

الكتاب الورقي والإليكتروني

لقد اعتدنا أن نقرأ في كل يوم، في الأعوام الأخيرة، أخبارا جديدة، تبشر بقرب اختفاء الكتاب الورقي المعتاد، لتحل محله كتب التكنولوجيا الحديثة التي يمكن قراءتها عبر قارئ الكتب المسمى (كيندل)، أو جهاز أبل ماكنتوش الجديد المطور، آي باد، وأن هذه الكتب ذات الأغلفة الملونة، والورق المصقول أو الخشن، التي علمتنا منذ الصغر، ووسعت ثقافتنا لسنوات طويلة، ستصبح مجرد ذكرى، في زمن قريب، وسينطبق ذلك أيضا على الصحف الورقية المعتادة، التي توقف بعضها بالفعل عن النشر ورقيا، واكتفى بنشر مواده على مواقع إليكترونية، يمكن الدخول إليها عن طريق الاشتراك.

هذه الأخبار مقلقة بلا شك، سواء لدور النشر التي ازداد عددها في

السنوات الأخيرة، وتنافست بشكل كبير، في جاذبية الأغلفة ونوعية الورق، والدعاية المكثفة لاستقطاب قارئ محتمل، أو مقلقة للقارئ التقليدي، صاحب الذائقة المستقرة، الذي تعود لسنوات طويلة على إمساك كتاب بيديه، وتقليبه، والتغزل فيه، والاسترخاء به في أي وضع، وأي مكان، ولو حدث واختفى الكتاب الورقي بالفعل، فإما أن يهجر ذلك القارئ، القراءة نهائيا، أو يحاول تحديث ذائقته، وجرها إلى القراءة الإليكترونية، باقتناء تلك الأجهزة الحديثة، وربما لا يحدث ذلك إلا بعد محاولات مضنية، فيها الكثير من الانزعاج والإحباط..

من ناحيتي، لا أستبعد ذلك أبدا، أي أن تختفي القراءة الورقية بالفعل، وقد لاحظت أن المواقع التي تنشر الكتب الإليكترونية، في ازدياد أيضا، وتوجد دور نشر في أوروبا وأمريكا، وأيضا في الوطن العربي، وإن كان ذلك على استحياء حتى الآن، تخصص في مواقعها، روابط بارزة للكتاب المنشور ورقيا وإليكترونيا في نفس الوقت، وعلى المتصفح لتلك المواقع أن يختار الطريقة التي سيقرأ بها، ولا بد أنه سيجد أن تحميل الكتاب مباشرة بعد دفع نصف سعر النسخة الورقية، أسهل بكثير من طلبه ورقيا، والانتظار عدة أيام، أو ربما أشهر حتى يحصل عليه. أيضا لاحظت في موقع أمازون الشهير لبيع الكتب، وحين استعرض تفاصيل كتاب ما، عبارة تقول: أطلب من الناشر أن ينشره إليكترونيا لتقرأه عبر جهاز كيندل، وعند الضغط عليها، تصبح طلبا رسميا من قارئ إليكتروني، يريد الكتاب إليكترونيا، وتذهب إلى الناشر مباشرة الذي بلا شك سوف يستجيب إن كان عدد الطلبات على القراءة الإلكترونية جيدا. بل ولاحظت أثناء

مروري في عدد من معارض الكتب، مثل معرض الشارقة، ومعرض أبو ظبي، ومعرض الدوحة الذي اختتمت أيامه مؤخرا، وجود دور نشر للأطفال والكبار، بعضها لا يوزع سوى ديسكات الكتاب الإليكتروني، وبعضها يوزع الكتاب الورقي، مصحوبا بديسك للقراءة الإليكترونية، حسب مزاج القارئ. كذلك يحرص موقع أمازون، في كثير من الأحيان أن يواجه المتصفح له بالنسخ الإليكترونية أولا، مع عروض شيقة لجهازه كيندل، كأنما يسعى المسؤولون فيه إلى التسويق للقراءة الحديثة بالفعل.

أعتقد أن هناك أسباب كثيرة، ستساهم في انتهاء النشر الورقي، أو التقليل منه مستقبلا، منها تكاليف الطباعة الورقية، من ورق وأغلفة تحتاج لمصممين، وتكاليف شحن للمشاركة في المعارض التي تقام في أي مكان، ومغامرات تسويق كثيرة، مثل الملصقات الدعائية، وحفلات التوقيع، التي ربما تنجح في تسويق الكتاب وربما لا، إضافة إلى حقوق المؤلف التي لا بد من دفعها في النهاية، لدى الناشرين الذين يهتمون بالكاتب ويقدرون حقوقه، خاصة في الغرب. ولعل أعباء النشر، وتكاليفه التي ذكرتها، إضافة إلى عدم إتاحة الفرصة للكثيرين من المبدعين الجدد، لنشر نتاجهم، ما حدا بالبعض لمحاولة بدء النشر الإليكتروني، وهي محاولات بالطبع فيها مجازفة للقارئ، لأن تلك السهولة، تتيح بمرور الرديء من الإبداع، جنبا إلى جنب، مع الجيد منه، وبالتالي إبعاد جديد للقارئ من سكة القراءة.

هناك شيء آخر لاحظته ربما يؤجل بشكل كبير من التهام القراءة الإليكترونية، للقراءة الورقية، وهو أن القارئ بمجرد أن يحصل على نسخته الإليكترونية، يمكنه بمساعدة متخصصين، أن يتخلص من الحماية

التي ترافقها، ونشرها مجانا لمن يريد، في كثير من المواقع التي تنشر الكتب المقرصنة، مثل موقع "فور شير"، الذي تحوي قاعدة بياناته آلاف الكتب في صيغتها المنشورة بها ورقيا، وهو ما لم يكن متاحا في السابق، حيث يصعب تصوير الكتاب، وعرضه بطريقة صالحة للقراءة. وبذلك مزيدا من الخسارات، في صناعة النشر.

لقد جربت شخصيا، أن أقرأ الكتب إليكترونيا، حملت عددا من الروايات وكتب أخرى ذات مواضيع مختلفة، من مواقع التحميل المجاني تلك، وحاولت قراءتها في أوقات متعددة، و لم أستطع إكمال كتاب منها على الإطلاق، كان الأمر مرهقا للنظر بصورة كبيرة، وأيضا فيه غرابة، وبالتالي لا أتمنى أن أجبر في المستقبل على مداومة القراءة هكذا، ربما يكون الأمر عاديا لأجيال جديدة، نشأت في وجود التكنولوجيا، وتستخدمها بشكل روتيني في كل ساعة من اليوم، لكنه شيء مرعب لي ولأبناء جيلي الذين تعودوا مصادقة الكتاب، والتغزل في طباعته أولا، قبل الشروع في القراءة، وسيعانون كثيرا إذا اضطروا إلى مصادقة جهاز إليكتروني ذات يوم.

من ناحية أخرى، لا أجد خوفا كبيرا على قراء العربية عشاق الورق، من اختفاء الكتاب العربي، فنحن بالرغم من أننا نحصل على التكنولوجيا سريعا، كما يحصل عليها المستخدم الغربي، إلا أن فهمها عندنا والتفاعل معها، يحتاج وقتا طويلا، وبالتالي ربما تصمد كتبنا زمنا، ولا تصبح ذكرى في القريب العاجل. ، ذلك ما لم ينحسر فعل القراءة نهائيا، في وجود كل وسائل التسلية المتاحة حاليا.

عبد الله الروائي

مساء بعيد في مستشفى مدينة بورتسودان، وكنا ننتظر تجهيز غرفة العمليات، لبتر ساق لمتسكع ليلي، أصابه طلق من سلاح عسكري، كان يحرس منع التجول في الساعات المتأخرة من الليل. كنا أمام غرفة كبير الممرضين عبد الله منصور، وكان شيخا غزير السنوات، لكن بنيانه المتماسك، وتحركه النشط، وأصباغ الشعر وشهادة تسنين قوية الحجة، كل ذلك أبقاه في الخدمة العامة لم تطله يد "الستين" الخشنة والقوية، والطاردة لسواعد الرجال. كان عبد الله منصور حكاء، وكانت مجالس الحكي التي يديرها أمام غرفته المتواضعة في ليالي المناوبات، تشد آذان الكثيرين من أطباء وممرضين ومرضى ومرافقين، لكنه في ذلك اليوم كان يكلمني، وكنت مستمتعا، فقد كنت بالفعل في تلك الليلة قارئا لرواية سحرية عظيمة.

قال كبير الممرضين يحدثني:

حدث ذلك في بداية الخمسينيات، حين كانت الخدمات الطبية شحيحة جدا ولا تتوفر إلا في المدن، وكانت القرى تفتقر حتى لمعاون صحي بسيط، لقد استلمنا في أحد الأيام بلاغا بوجود مصاب مطعون في بطنه في شجار قبلي، في أحد أماكن تجمعات الرحل المنتشرة خلف الجبال، وقد أبلغنا بذلك أعرابي كان يركب جملا، وقد وصل إلى المدينة بعد أن استغرق عشرين يوما في الطريق. ركبنا في عربة للإسعاف تابعة للمستشفى برفقة الأعرابي، وتوغلنا في وسط الجبال والدروب الوعرة، نجوع ونعطش، ونتوه ونستدل، مستغرقين خمسة عشر يوما، حتى وصلنا إلى موقع المصاب وكانت أمامنا مفاجأة: فقد كان المطعون معطرا بعطر الشاكوين المحلي، ومزينا يغطي شعره الودق، وقد لفت أحشاءه المدلوقة خارج البطن بخرقة نظيفة، وكان يحمل سيفا وعصا ويرقص وسط الأغنيات المحلية وزغاريد الصبيات، فقد كان يوم عرسه. حاولنا الإمساك به وجره إلى عربة الإسعاف، لكنه صرعنا جميعا واستمر في احتفاله الكبير غير عابئ بتحذيري وتحذير ممرض آخر كان برفقتنا. جلسنا في القرية شهرا كاملا، كنا متوترين ونافدي الصبر، ننتظر انتهاء شهر العسل حتى نقوم بمهمتنا، وكنا في كل صباح جديد نقوم بزيارة المصاب في خيمته، نغسل أحشاءه بملح الطعام ونلفها بشاش معقم، ونجبره على تناول بعض (السلفا) حتى انتهى ذلك الشهر المرير، وعدنا به إلى المدينة. كانت الرحلة هذه المرة شاقة للغاية فقد كنا في عراك مستمر مع العريس المطعون الذي كان يسأل عن عروسه، ويحاول القفز من العربة كلما أعاقتها حفرة أو

اعترضها جبل، وكانت خمسة عشر يوما أخرى مريرة حتى وصلنا إلى المدينة، وسلمنا المصاب إلى قسم الجراحة لترتيق أحشائه).

كان عبد الله منصور يلهث، وكان يقطع الحكي بين حين وآخر، بتثاؤب متقطع أو قسم غليظ، وحين انتهى سألني فجأة:

هل تعرف "عثمان أوهاج" الذي كان شرطيا في المستشفى وانتقل منه العام الماضي؟

قلت: نعم

– إنه ولد المصاب البكر، وقد رزق بعده بسبعة آخرين.

كانت في حلقي أسئلة كثيرة، وكانت ثمة حوارات ومداخل تجتاحني، لكن غرفة البتر كانت جاهزة، وكان علي أن أنصرف.

نظرة على جائزة البوكر

حتى ست سنوات مضت، لم يكن معظمنا يعرف الكثير، عن جائزة مان بوكر البريطانية، بالرغم من أنها جائزة كبرى وذات ثقل مادي ومعنوي في أوروبا، ويخوضها كبار الكتاب سنويا، أو الكتاب المخضرمين، جنبا إلى جنب مع المبتدئين الذين ربما يدخلونها برواية أولى، قد تكسب بالفعل، وتصيرهم أعلاما بعد ذلك، مثلما حدث مع الهندية أرونداتي روي، التي فازت بالجائزة في أواخر التسعينيات من القرن الماضي عن روايتها: إله الأشياء الصغيرة، والهندي أرافيندا أديغا، في روايته النمر الأبيض التي فازت في الألفية الجديدة، وكثيرون غيرهما ممن صاروا أعلاما في سكة الكتابة بعد ذلك. فالجائزة لها شروطها الواضحة المعلنة، وهي أنها تتعامل مع نص، ملغية شهرة كاتبه من عدمها، ويستوي أمام لجنة التحكيم نص

كتبه كويتزي، أو نادين غورديمر، مع نص ربما يكتبه هاو في عشرينات العمر، يتفوق به على نصوص الكبار.

أيضا بالنسبة للجان تحكيم تلك الجائزة، هنا أيضا لا يشترط وجود محكمين مدججين بالأبحاث، وشهادات النقد والتدريس الجامعي، وإن وجدوا، يكونون من ضمن فريق ربما يرأسه أحدهم، وربما يرأسه كاتب روائي، لا يحمل سوى شهادة الإبداع. ولأن جائزة مهمة كتلك، هي في الحقيقة بوابة عريضة للشهرة، والترجمة إلى لغات أخرى، وتحقيق أرقام قياسية في توزيع الكتب، فنادرا ما تجد كاتبا يقاطعها، ولا يركض في ماراثونها السنوي.

الجائزة بمعاييرها تلك، خصصت أخيرا فرعا للأدب العربي الذي هو أيضا أدب، وأدب خاص جدا، له كتابه ونوابغه، ويحق له أن يحظى بجائزة كتلك، ومن ثم تم إنشاء الجائزة العالمية للرواية العربية، أو بوكر العربية، برعاية مان بوكر البريطانية، ولكن بمجلس أمناء منفصل، وتداعيات منفصلة، ستجعل كتاب العربية، مهووسين بمحاولة اقتناصها في كل موسم. هناك من يكتب بعادية كما كان يكتب دائما، ويترك نصه يركض في المنافسه، عله يصل، وهناك من يكتب خصيصا للجائزة، على أمل أن يكسب.

إذا ألقينا نظرة سريعة على ما حققته الجائزة العالمية للرواية العربية، في مواسمها التي انقضت، نجد الكثير من الإيجابيات، التي ما كنا سنمسك بها لولا تلك الجائزة، وأيضا نجد الكثير من السلبيات التي كانت من

توابعها، نجد مديحا عظيما لها، من أولئك الذين حققت نصوصهم نصرا، سوى بالفوز بها أو بوصول قوائمها القصيرة التي هي أيضا نصر إلى حد ما، ونجد هجوما ضاريا من أولئك الذين كانوا يعتزون بنصوصهم، وفرشوا على صفحاتها آمالا عريضة، وكثيرون خاصة من الكبار الذين لم يحظوا بالتفاتة من لجان التحكيم إلى نصوصهم، اعتبروها جائزة سيئة وعميلة، وبعضهم قاطعها تماما.

لقد كانت الدورة الأولى التي فاز فيها القدير بهاء طاهر، موفقة جدا في رأيي، فقد قدم بهاء نصا يساوي اسمه، وسمعته، ويستحق عليه الفوز، لكن كان هناك أيضا نص مبدع لخالد خليفة، هو أيضا نص يشبه الجوائز وتشبهه، وفي الدورة الثانية كانت رواية عزازيل ليوسف زيدان، وكانت نصا مثيرا للجدل قبل فوزه وبعد فوزه، وهو الرواية الوحيدة في كل كل الدورات، التي حظيت باهتمام أوسع في البلاد العربية والغربية، والرواية الوحيدة التي ترجمت إلى لغات كثيرة، بينما باقي الروايات سوى راوية بهاء طاهر، أو تلك التي فازت بعد عزازيل، لم تترجم إلا لعدد محدود من اللغات، وبعضها لم يترجم حتى الآن لأي لغة. لقد كانت ثمة نصوص أخرى مشرقة، وصلت للقائمة القصيرة، لتنافس عزازيل، لكن كان متوقعا أن تكسب عزازيل، بسبب الجدل الذي دار، خاصة من جانب المسيحيين الذين اعتبروها نصا محرفا ومحرضا، يستهزئ بعقيدتهم.

في الدورة التي رأس لجنة تحكيمها الكويتي طالب الرفاعي، وشارك فيها محكمون من بلدان أخرى، حدث ما يمكن اعتباره اهتزازا في هيبة

الجائزة، حين اختلف المحكمون، وحين تبادلوا الصراخ، والاتهامات، ونالها عبده خال، في وجود مشاركين قدموا نصوصا مذهلة، مثل المنسي قنديل في روايته: يوم غائم في البر الغربي، توقع كثيرون أن تنهار تلك الجائزة وهي ما تزال رضيعة في المهد العربي، لكن ذلك لم يحدث، واستمرت الجائزة في مواسمها اللاحقة، فقط بوهج أقل، وبمزيد من المهاجمين والمقاطعين لها، ثم لتأتي الدورة الرابعة، وتقسم الجائزة الكبري إلى فائزين، وهذا أيضا كان من شأنه أن يهز كثيرا من الهيبة، ولتفقد مصداقيتها لدي عدد من المهتمين بشأنها، وتتهم صراحة بأن هناك أجندات خفية، تتحكم في منحها، ولا دخل للإبداع فيها. وقد كان الموسم الخامس أيضا مفاجئا، ليس بالموجودين في قوائمه، ولا بربيع جابر ودروز بلغراد، ولكن بالذين لم يدخلوا أصلا إلى أي قائمة، وكانوا جديرين بالدخول، وفي ذهني روايتان لمبدعين حقيقيين، لم أكن أعتقد أن ثمة لجنة تحكيم ستتخطاهما.

أعود إلى إيجابيات الجائزة العالمية للرواية العربية، وحقا لها إيجابيات كبرى، أهم تلك الإيجابيات أنها وسعت من رقعة القراءة الضيقة في العالم العربي، وأصبحت الروايات التي تعلن في القائمة الطويلة، هدفا سريعا للقراءة من قراء ينتظرون، فسرعان ما توضع على قوائم القراءة، وما تنفذ نسخها الأولى من المكتبات ومعارض الكتب، وتحظى بمناقشات واسعة، كذلك بالنسبة للمبدعين، سوى الذين كانت الجائزة هدفهم، أو لا، هنا يكثر التنافس في اختراع فكرة جديدة، وفي التجلي الكتابي، وفي وضع كل بهار من شأنه أن يثير ذائقة المحكمين، ومن ثم تحدث المفاجأة التي

ينتظرها صاحب النص، وبالنسبة للكتاب الذين كانوا يكتبون في صمت سنوات طويلة، وربما لا يعرفهم إلا القليلين، فقد دخلوا إلى بوابة القراءة، بمجرد وصولهم إلى قوائم الجائزة، وبدأ القراء يبحثون عن نصوصهم القديمة.

الورشة السنوية التي تعقدها الجائزة في ما يسمى عزلة الكتابة، وترشح لها كتابا واعدين، تحت إشراف كاتبين معروفين، من أكبر إيجابيات الجائزة على الإطلاق، إنه تقليد رائع بحق، أن تأتي الموهبة لتحتك بالخبرة لعدة أيام، وتحت إشراف قوي، وبعدها يخرج صاحب الموهبة وقد عرف الكثير، عرف أين يضع خطواته المستقبيلة، وهو يسير في درب الكتابة.

أتحدث قليلا عن سلبيات الجائزة، نعم توجد سلبيات بلا شك، أهمها أن التحكيم يخضع لتذوق المحكم كما أعتقد، وليس لمعايير علمية يقيم بموجبها النص، فتجد نصا رضي عنه آلاف القراء، لا يحظى بالتفاتة من لجان التحكيم، بينا آخر لم يعجب أحدا، تجده قد تربع في القوائم. هناك سلبية الإنتاج الكثيف الذي ابتليت به الرواية من أجل خاطر هذه الجائزة، فتجد نصوصا لم تكن لتجرؤ أن تخرج من مخيلة كاتبها، أو مسوداته، فيما مضى، أصبحت الآن ترنح في سباق الجائزة.

أخيرا أتمنى حقيقة أن تستمر تلك الجائزة، برغم كل شيء، ونحن لا نصدق أننا كسبنا جائزة فقط على من يتم اختيارهم لتحكيمها، أن ينظروا إلى التجارب الجديدة المليئة بالتجريب أيضا ولا يكتفون بالتجارب الكلاسيكية المستقرة.

فرحة الجوائز

كنت قد قرأت مقالا للكاتب البيروفي الكبير، الحائز على جائزة نوبل في الأدب منذ عامين، ماريو فارجاس يوسا، يصف فيه فرحته الأقرب إلى الصدمة، حين تلقى نبأ فوزه بنوبل في الخامسة صباحا، بتوقيت نيويورك، وكان موجودا في تلك المدينة الصاخبة، برفقة زوجته، لإلقاء محاضرات والمشاركة في ندوات خاصة بالكتابة.

يقول يوسا إنه لم يصدق في البداية، وظنها مزحة أو مقلبا من أحد أصدقائه، لا لعدم ثقته في مكانته التي ترتقي به إلى أية جائزة، ولكن لعدم تفكيره في الجائزة باعتبارها حلما مشتركا، يتزاحم عليه عشرات الحالمين كل عام، وبعضهم مدرج على ذلك الحلم منذ أكثر من ثلاثين عاما، ولم يستطع إطلاق فرحته من عقالها، إلا حين أذيع النبأ رسميا في الأخبار.

ما أود طرحه، هو: لماذا تفرحنا الجوائز أو تصدمنا إلى هذا الحد؟، ولماذا تصيبنا بالإحباط حين لا نفوز بها؟

في رأيي الشخصي، أن الكاتب الحقيقي لا يكتب من أجل جائزة، وكما أقول دائما، إن الكتابة جرثومة تولد مع الشخص حين يعانق الحياة، ولا علاج لها، سوى مزيد من تمكينها في الدم، ولو صادف أن فاز أحدهم بجائزة ما، أثناء مشوار الإبداع، فلا بأس، وإن لم يفز، فسيظل إبداعه موجودا في أذهان أجيال تأتي بعد ذلك، لكن إذا قارنا الجوائز الإبداعية بالمؤهلات الدراسية التي ترافق سير المتعلمين، لوجدنا أنها أشبه بالدرجات العلمية، فالذي يحصل على جائزة، سيضيفها حتما إلى سيرته الإبداعية، وبالتالي تساعد في انتشار أعماله، تماما كدرجة الدكتوراة التي تساعد حاملها على سرعة توظيفه، حين يتنافس المتنافسون في سوق العمل، أو الرتب العسكرية والنياشين التي تضاف إلى بذلات العسكريين، وتكسبهم مزيدا من الاحترام. وتبدو جائزة نوبل هنا أكبر شهادة في هذا المجال، وأعلى الرتب الإبداعية على الإطلاق. لا نستطيع أن نلوم يوسا حين فرح، برغم شهرته العريضة، والنياشين المعنوية التي حصل عليها طوال مشواره الكتابي، فقد حصل على أعلى الرتب.

بالنظر إلى توزيع كتب يوسا بجميع اللغات التي ترجمت إليها، قبل نوبل، سنجد أنها تخضع للتذوق الشخصي، وتسير في معدل تجاري مقبول، مثل كثيرين غيره من الكتاب الكبار، وحين جاء نيشان نوبل، اختل ذلك المعدل، تسارع توزيع الكتب بشكل جنوني، واحتل بعضها

لائحة الأكثر مبيعا. فقد عرف الذين لا يعرفونه أن ثمة كاتبا حصل على الرتبة العالية، ومن ثم سارعوا للتعرف على إنتاجه عن قرب.

لقد عاش كثير من عظماء الكتابة وماتوا بلا دكتوراة إبداعية، ولا رتب أو نياشين، وقرأ البعض إبداعهم، و لم يقرأه البعض الآخر، وأظنهم لو حصلوا على تلك الإضافات في سيرهم لاختلفت أحوالهم كثيرا.

لا عجب أن يوسا فرح كثيرا بجائزة نوبل.

الكتابة المحظوظة

تذكرني عودة النيجيري الثمانيني تشينوا تشيبي إلى الظهور إعلاميا مرة أخرى، قبل وفاته التي حدثت مؤخرا، في كتاب جديد عبارة عن مقالات كتبها أخيرا وهو في أوج الشيخوخة، على مقعد متحرك، وتحكي أجزاء كبيرة من سيرة حياته واشتغاله بالكتابة، وأيضا سيرة قارته أفريقيا، تذكرني ولعلها تذكر قراء آخرين يعرفونه، بروايته القديمة (الأشياء تتداعى) التي صدرت منذ أكثر من نصف قرن في سلسلة للكتاب الأفارقة، هو من أسسها بالاشتراك مع دار هاينمان الإنجليزية، وبيع من تلك الرواية ملايين النسخ، وترجمت إلى كل لغات العالم، وما زالت تطبع وتوزع حتى اليوم باعتبارها شهادة حية على زمن الاستعمار وويلاته في أفريقيا، وأيضا رصدا أمينا لزمن الخرافة، والاعتقادات السائدة والطقوس التي كانت تمارس في ذلك الزمن البعيد. وحقيقة استطاع تشيبي عبر بطله

الأفريقي الكلاسيكي، وشخصياته الغريبة، أن يرسم واقعية مريرة، فيها من السحر الكثير، وأعدها المعادل الأفريقي، لرواية ماركيز الشهيرة:مئة عام من العزلة. ورغم أن تشيبي كتب بعد تلك الرواية، أعمالا أخرى تطور فيها أسلوبه كثيرا، وتغيرت نظرته للحياة، إلا أن تعليبه في تلك الأشياء المتداعية، لم ينته، وظل مستمرا إلى اليوم.

هذا التعليب وإن كان يضر بالكاتب معنويا إلى حد ما، بوصفه أنجز نصا واحدا جديرا بالتقصي والمتابعة، والترجمة، والنقاش المستمر، والتدريس في الجامعات، بينما باقي إنجازه اللاحق يظل مهملا ولا يلفت النظر كثيرا، إلا أنه يدل على حظ ما، ليس حظ الكاتب بالتأكيد، ولكن حظ الكتاب الذي قرئ ملايين المرات بمختلف لغات العالم، وأصبح من العلامات البارزة في الكتابة الروائية، لقد قرأت (الأشياء تتداعى) في الثمانينيات من القرن الماضي منساقا وراء شهرتها العريضة، وقرأتها بعد ذلك عدة مرات في ترجمة عربية جيدة، ولا أنكر أنها بهرتني كثيرا، لكنني لم أجدها تختلف كثيرا عن نتاج الكاتب ككل، وكذا قرأت أعمالا أخرى لكتاب آخرين تمت عملية تعليبهم فيها، وما وجدتها تفوق نصوصا أخرى كتبوها قبل أو بعد ذلك، وربما كانت أقل في السحر والإبهار من تلك النصوص، ودائما ما تقفز إلى ذهني رواية (بندر شاه) للراحل العظيم الطيب صالح، وأنها بتلك البهارات السحرية التي كتبت بها، والتصاقها الحميم بجسد البيئة السودانية في شمال السودان، تأسر القراءة في رأيي أكثر من محظوظته (موسم الهجرة إلى الشمال)، الأكثر ذيوعا وانتشارا منها، لكن رأيي لا يتعد رأي قارئ عادي لا يخرج عن حدود قراءته، سيختلف معه الكثيرون

بلا شك، وقد عانيت شخصيا من انتشار روايتي صائد اليرقات، التي حظيت بأكبر اهتمام لدى القراء الذين عرفوني من خلالها، بينما شخصيا لا أعدها من رواياتي الهامة، وكتبت قبلها وبعدها روايات أكثر أهمية، يتداولها القراء باستحياء، ويكتب عنها النقاد باستحياء أكبر.

إذا نظرنا إلى ما أنتجه العظيم نجيب محفوظ خلال تجربته العمرية الكبيرة، نجد أعمالا خارقة وعبقرية، ولكن أيضا نجد ثلاثيته المكونة من: بين القصرين وقصر الشوق والسكرية، والمنشورة عامي 1956 و1957، هي الأكثر شهرة بين جميع أعماله، سوى عربيا أو عالميا، وما زال القراء يتداولونها باستمرار حتى اليوم، وعدت أفضل رواية عربية على الإطلاق، وهذا الحكم الأخير، أعتقد بأنه بني على عاطفة خاصة وانحياز للرواية، على حساب إنجاز نجيب المبهر في معظمه. وأثناء تجوالي في المكتبات ومعارض الكتب، كثيرا ما أجد قراء يتصفحون الكتب، لكنهم في النهاية يسألون عن أعمال معينة لكتاب معينين، بينما توجد أمام أعينهم كتب لأولئك الكتاب أنفسهم، ولا يعيرونها التفاتا. وبالطبع هم يسألون عن الكتب الأكثر شهرة لأولئك الكتاب، أو الكتب التي علب فيها أولئك الكتاب عن قصد أو من دون قصد، وأصبح ذلك قدرا حتميا.

من ناحية أخرى، نجد روائيين انتشروا بسرعة في كل أنحاء الدنيا من عمل أو عملين فقط، مثل الكندي: يان مارتل بروايته حياة باي، التي كتبها عن صبي يصارع البحر برفقة نمر مفترس، ونال عنها جائزة المان بوكر البريطانية، وحولت مؤخرا لفيلم سينمائي بديع، بنفس الاسم، بينما

روائيين آخرين كتبوا أكثر من عشرين عملا و لم يسطعوا نجوما أبدا، لا بسبب عدم جدارتهم بالنجومية، أو قلة تمكنهم وحيلتهم، لكن لأن حظهم جاء هكذا، ألا يسطعوا أبدا، وأتذكر الإسباني كارل رويس زافون، الذي يجوب العالم ويتربع في اللغات كلها، ويوضع على لوائح الكتاب الأكثر رواجا في العالم بروايتين فقط هما: ظل الريح ولعبة الملائكة، ويوجد في إسبانيا مئات الروائيين الذين كتبوا عشرات الروايات مثل أنطونيو عالا صاحب رواية الوله التركي البديعة، و لم تتعد شهرتهم إسبانيا، أو دول معينة في أوروبا. وكذا أتذكر رواية عداء الطائرة الورقية التي كتبها الطبيب الأفغاني خالد حسيني، عن بلاده أفغاستان في ظل حكم الطالبان التعسفي، وما حدث من جرائه، ولا بد أن موضوعها الذي له علاقة مباشرة بالتطرف الديني، وقمع الحريات، هو ما حقق تلك الشهرة العريضة للرواية في الغرب الذي تبنى من البداية فكرة محاربة طالبان، وكانت عملا أولا للمؤلف ربما لم يكن ليسطع هكذا لولا الحظ. ، ولدينا هنا في العالم العربي رواية بنات الرياض، رواية أولى وأخيرة للكاتبة رجاء الصانع، ليست قوية فنيا، ولا عملا مبهرا، ولكنها رواية محظوظة، ورائجة جدا. وأيضا لدينا خواطر عن العنوسة والزواج، أخذت من مدونة، وانتشرت بشدة، والأمثلة كثيرة بلا شك.

الإعلام حين يساند حلما مضطربا

ظهر مرة، في قناة فضائية عربية، وأمام مذيعة منبهرة، شاب في أوائل الثلاثينات، يرتدي ملابس تؤهله للظهور إعلاميا، وثباتا غريبا، ثبات من اعتاد الكلام ومن حوله كاميرات تسجل حتى حكة شعره إن حك شعره. كان يتحدث عن تجربة كبيرة له في الكتابة الروائية، قوامها بضعة عشر عملا روائيا مكتوبا ومنتشرا بشدة في قوائم الكتب الأكثر مبيعا في الوطن العربي، ومترجما إلى كل اللغات العالمية، وحاز على إعجاب ومساندة الغرب، حيث نوه الكثيرون عن أعماله هناك، ولدرجة أن تم ترشيحه لجائزة نوبل في الآداب لهذا العام. أيضا تحدث الشاب الثلاثيني، وبثبات أكثر عن إقامته في دوحة قطر، التي وجد فيها ملاذا آمنا، ومنحته الوقت حتى يكتب، وعن أعمال درامية، استوحيت من رواياته، وسم مسلسلا دراميا، شهيرا تم عرضه في رمضان قبل الماضي، بوصفه سيناريو أخذ

عن روايته التي باعت أربعين ألف نسخة حول العالم، وإن هذا المسلسل له قصة غريبة، والقصة الغريبة هي أن دولتين اشتهرتا في مجال الدراما التلفزيونية، تقاتلتا على ذلك المسلسل، في مزاد، إلى أن فازت به إحداهما، لتنتجه، وتبيعه لعدد من القنوات الفضائية، ثم لينال استحسان المشاهدين، ويزيد من بريقه ولمعانه. في ذلك الحوار أيضا، تحدث الشاب عن بداياته في الكتابة، أيام الصحف الحائطية في المدارس، وعن الذين شجعوه على الاستمرار ذاكرا اسمين معروفين، وعن العوالم التي صنعته، وجعلت منه ذلك الرمز الكبير، الذي تفخر به بلاده الآن.

حين يظهر كاتب بهذا الحجم فجأة، في عالم نعرف جيدا، من يمثله، ولا نعرف عنه شيئا، في البداية سنتهم أنفسنا بالجهل، ثم سنبحث عنه في محركات بحث تكنولوجية عالية الدقة، تخرج النملة من جحرها، إن بحثنا عن نملة ضائعة، ويمكن أن ترينا هذا الشاب الروائي، صاحب الشهرة العالمية، جالسا يكتب على مقهى غاص ببهارات الإيحاء، في أحد شوارع أمستردام، أو في عدد من مهرجانات الثقافة العالمية، في أي بلد، يبتسم راضيا بصحبة بول أوستر، وجون جريشام، وبن أوكري، أو على أقل تقدير، يضع يده على كتف واحد من كتابنا العرب الذين عرفهم العالم، من أمثال هشام مطر، وجمال محجوب، لكن للأسف لم يكن هناك أي شيء يخصه في ذلك العالم الافتراضي الحشري إلى أبعد درجة. لا كتاب منشور بأي لغة، في أي بلد، لا سيرة ذاتية توضحه كاتبا، حتى من سطرين، وذلك العمل الدرامي الكبير، كان كاتبه معروفا وموثقا في مقدمة عرض المسلسل الناجح.

كان ذلك الشاب يتبع حلم يقظة رسمه بسذاجة شديدة، ليس حلما معقولا يكتفي بمحلية أو إقليمية، ويمكن أن تتسع رقعته في المستقبل، لكنه حلم كامل، لم يترك شاردة ولا واردة في سكة البريق إلا جاء بها، ولدرجة أن انكشافه كان سهلا لأي شخص شاهد تلك الحلقة التلفزيونية، حتى لو كان جاهلا. كان الحلم يتبع أمنيات ربما تمناها غيره، وحلموا بها في لحظات يقظة متعددة، لكن لم تتعد لحظة استيقاظهم قط: أولا حلم أن يصبح كاتبا يعيش في دولة قطر المعروفة برقيها وحياتها السهلة، واحتفائها بالإبداع في كل زمان ومكان، ثم ينتج أعمالا روائية تدخل في قوائم الأوسع انتشارا والأعلى مبيعا، وتترجم إلى كل اللغات المتوفرة، ويكتب عنها الغرب، حتى تعبر الطريق إلى استوكهولم، حيث تنتظر جائزة نوبل، عروسا مزينة. ولأنه اشتهر بشدة، فلا بد أن تلتفت إليه الدراما، وأن تتنافس شركات الإنتاج على أعماله، التي ستنتج حتما ويشاهدها الملايين في بيوتهم، ويزداد شهرة على شهرته.

بالطبع لن نجبر الناس على أن لا يحلموا أبدا، والحلم المتيقظ حق لمن أراد أن يرسمه بأي ريشة، لن نجبر راعيا للأغنام في صحراء جرداء، على أن لا يرسم نفسه نلسون مانديلا، ولن نجبر فتاة عرجاء في قرية بعيدة، على أن لا تتبختر أمام مرآتها، باعتبارها عارضة الأزياء نعومي كامبل، وقد جلست كثيرا إلى حالمين لم يبرحوا بلادهم قط، وتحدثوا عن زيارات قاموا بها للبيت الأبيض في واشنطن، وكنت أعرف شخصا من أقاربي يعمل سائقا لشاحنة تجارية، ولا يملك حتى جوازا للسفر، يتحدث في كل مجلس يجلس فيه، عن صداقته بالممثل المصري الراحل عبد الوارث عسر،

وعن أدائه لدور معلم في مقهى، في أحد أفلام المخرج العظيم صلاح أبو سيف، وأن ملك الأردن كان يبتهج حين يزوره، حيث يجلسه على يمينه، ويكرمه بلا حساب، لكن تلك الأحاديث، التي يتقبلها الناس ضاحكين عادة، ما تلبث فاعليتها أن تنتهي، حين ينفض المجلس، ويعود الرجل إلى شاحنته استعدادا لملئها أو تفريغها.

السؤال هنا في قصة هذا الشاب الروائي، هو: كيف تفتح قناة تلفزيونية فضائية، استديوهاتها لتحاور شخصا مجهولا بوصفه نجما؟، كيف يعد أحدهم حلقة عن وهم لم يلمسه، ولم يتحقق من وجوده أو عدمه؟، وكيف تجلس مذيعة متأنقة ومنبهرة، تحاور حالما متتبعة حلمه كما رسمه، ولا تسأل مجرد سؤال، عن تلك الكتب أين توجد، وتلك الشهرة العريضة، كيف تكونت في هذا السن الذي لا يسمح حتى بتكوين فريق حاف لكرة القدم في حارة ضيقة؟

مهما تحدثنا عن جهل من يعدون البرامج الثقافية، وعدم معرفتهم بالشأن الثقافي، لكن من المستحيل أن يعد أحدهم حلقة عن رمز كبير من رموز البلاد، ولا يكون قد سمع بهذا الرمز من قبل؟، وفي زمن التكنولوجيا المتقدمة الذي نعيشه الآن، كما ذكرت، يمكن بنقرة ذر واحدة أن يحصل معدو تلك البرامج على معلومات تكفي لتقديم الضيف في أي صورة يريدونها. لا أستطيع أن أتصور أن هذا الشاب حين طرح نفسه لتلك الفضائية، وبكل تلك العظمة، أخذ هكذا، وأجري معه الحوار هكذا، ولم يكلف معد الحلقة أن ينقر على ذلك الذر السحري، ليزداد علما ببريق ضيفه على الأقل؟

أذكر أن مقدم برامج شهيرا في إحدى القنوات العربية، التقاني مرة في أحد الملتقيات و لم يكن يعرفني أو يعرف عني أي شيء. طلب مني أن يجري معي حوارا بعد ساعتين، وفي تلك الساعتين تزود بما يكفي لجعل ذلك الحوار ثريا ورائعا، أدهشني شخصيا.

أرى أولا أن تعتذر تلك القناة لمشاهديها عما حدث، واعدة بعدم تكراره، وثانيا أن تعقد دورات مددتها عدة دقائق فقط، لمعدي البرامج الثقافية، يتعلمون فيها، كيف ينقرون على تلك الأذرار السحرية، في ذلك العالم الذي يحوي كل شيء.

عن الرواية والتاريخ

كنت قد كتبت في مقدمة روايتي توترات القبطي، الصادرة منذ ثلاثة أعوام، بأن هذا النص رواية وليس تاريخا.

هذه العبارة التي كتبتها في مقدمة نص روائي فيه الشيء الكثير من التاريخ، والشيء الكثير من الحاضر أيضا، أثارت جدلا لا بأس به عن أحقية الكاتب في وضع مثل تلك العبارات، وهل من حقه فعلا، رسم خط يريد القارئ أن يسير عليه، أم يترك القارئ يسير في خطه الخاص الذي يرسمه، من دون تدخل من الكاتب، وبذلك يحقق النص الأدبي الغرض من كتابته، خاصة أننا درجنا في كثير من أعمالنا على وضع مثل تلك العبارات، التي تحدد المسار مسبقا، كالعبارة المألوفة: هذا النص مجرد خيال، وإن تشابهت أحداثه وشخصياته مع الواقع، فهو مجرد تشابه.

في الواقع وفي أي نص إشكالي ربما يتقاطع مع حقبة تاريخية ما، يتبينها القارئ من الجو العام للنص ومفردات البيئة التي صيغ عليها وأحوال المجتمع في تلك الحقبة، قد توجد قراءة خاطئة، وفهم خاطئ يترتب عليه محاكمة الكاتب كمؤرخ، تجرأ على التاريخ وحرف وقائعه، أو جزءا من تلك الوقائع، خاصة أن القراءة العربية ما تزال في أغلبها قراءة انطباعية، تأخذ السهل من الحكاية وتلقي بالعميق منها بعيدا عن الذهن، وحتى أولئك الذين يقولون دائما بأنهم عشاق للقراءة، أولئك حين تناقشهم في أي نص، تكتشف عدم تعمقهم وأنهم يتبعون الخط العام للقراءة.

من كل ذلك يتضح أن الكاتب ملزم إبداعيا، أو احترافيا لوضع علامة مثل علامة (قف) في التقاطع الذي يحس بأنه ربما يتسبب في حادث ما، حادث ينتج من الانحراف بالقراءة بعيدا، وروايات مثل توترات القبطي، وعزازيل ليوسف زيدان، وبعض أعمال نجيب محفوظ، فيها تلك الخيوط المبعثرة، وكانت توترات القبطي في رأيي تحتاج إلى تلك العبارة الاستهلالية بلا شك، هنا فقط يتنبه القارئ إلى خط سيره، ولو صادفته أي تقاطعات مع خطوط أخرى ينتبه إلى أن الأمر لا يعدو نصا خياليا من ذهن الكاتب، ولكن ليست وقائع بعينها حدثت في زمن مضى.

مشكلة الرواية التاريخية أو الرواية التي فيها عبق التاريخ، كما أقول دائما ويقول زملاء لي كتبوها عن وعي مثل واسيني الأعرج، هي مسألة الالتباس ومسألة الخطر الذي يحدق بالنص ساعة كتابته وساعة قراءته معا، ولا شك أن دراسات كثيرة وقراءات متعددة يجب أن تسبق كتابة تلك النصوص، حتى تكسبها ثوبها المسالم الذي تخرج به.

عموما، توترات القبطي فيها تاريخ وفيها غير التاريخ، ولكن أصر بأنها عمل إبداعي لا يجب أن يخضع لمقاييس الواقع المحدد بزمان ومكان معينين، تجب قراءته كما هو وفهم الرسالة التي يحملها.

أعظم الروايات

أعلنت صحيفة الجارديان البريطانية، هذا العام، قائمتها لأعظم مئة رواية في التاريخ الإبداعي، على الإطلاق، بحسب رؤيتها، وتصدرت تلك القائمة، رواية دون كيشوت الشهيرة، للإسباني ميجل دي سرفانتس، وروبسون كروزو، لدانييل تريفور، ورحلات جاليفر، لجوناثان سويفت، كما شملت القائمة أيضا أعمالا معروفة، مثل: "كلاريسا" لصامويل ريتشاردسون، و"إيما" لجين أوستن. و"فرانكشتين" لماري شيلي، و"الكونت دي مونت كريستو" لأليكسندر ديماس، و"ديفيد كوبر فيلد" لتشارلز ديكنز، و"جين إير" لشارلوت برونتي، و"موبي ديك" لهيرمان ملفيل، و"مدام بوفاري" لجوستاف فلوبير، و"أليس في بلاد العجائب" للويس كارول، وغيرها من الأعمال الأخرى التي يتوقع وجودها دائما،

في مثل تلك القوائم. أيضا في بداية الألفية الجديدة، أعلن عن أفضل مئة رواية في القرن العشرين، وإن كنت لا أذكر الجهة التي أعلنت ذلك، لكني أذكر أن ثمة روايات عربية، ظهرت في تلك القائمة، منها ثلاثية نجيب محفوظ المعروفة، وموسم الهجرة للطيب صالح، ومنذ عدة أعوام، أعلن اتحاد الكتاب العرب، عن أفضل مئة رواية عربية، وشملت أعمالا لمحفوظ، والطيب صالح وتوفيق الحكيم، ويحيى حقي، وعبد الرحمن منيف وغيرهم، ونقرأ هنا وهناك لكتاب ونقاد مثل الجزائري ياسمينا خضرا، وسلمى الخضراء الجيوسي، عن قوائمهم لأفضل عشرة كتب عربية، وهكذا.

الملاحظ في تلك القوائم التي يعلن دائما أنها من اختيار نقاد وكتاب كبار، أن معظم الاختيارات التي تتضمنها، تتوقف عند أعمال كلاسيكية، أو أعمال كتبت في القرون الماضية، وفي بدايات وهج الكتابة، أو أعمال معاصرة، لكنها اصبحت من المقررات الدراسية في كثير من الجامعات والمعاهد والمدارس المتوسطة، ولا تنحاز إلا نادرا لأعمال كتبت حديثا أي في أواخر القرن العشرين، وبداية الألفية الجديدة، فروايات مثل: جين آير، وذات الرداء الأبيض، وديفيد كوبرفيلد، كانت من ضمن مقررات التعليم الثابتة، ولأجيال متعاقبة، وتوجد في قائمة الجارديان، رواية: بتقدم الحاج، لجون بونيان، كتبت عام 1600، أي منذ أربعة قرون، و لم تكن الكتابة آنذاك، تملك حيلا ولا فنا مراوغا، يضع رواية مثل هذه في قائمة تضم أعظم الروايات في التاريخ. وإن كان لا بد من الإشارة لرواية مثل هذه، فليشر إليها بوصفها من الأحجار الجيدة التي ساهمت في رصف

سكة الكتابة، لأعمال أخرى قادمة، وأتت تلك الأعمال وأكملت رصف الطريق.

اختيار الجارديان، أثار تساؤلات عديد من القراء، وأثار تساؤلي أيضا بوصفي قارئا، وإن كان قد ذكر بأن ذلك كان اختيار دارسين ونقاد عظماء للأدب، فهذا أيضا لا ينفي وعورة ذلك الاختيار، وإنه اختيار ناقص أو مشوه، وتوجد أعمال كثيرة متقدمة، لكتاب مجيدين، لم يدخلوا تلك القائمة، التي تروج لأعمال بعينها، في زمن تطور فيه كل شيء، حتى الكتابة، وكأنها تلغي فطنة القارئ المعاصر، وتعيده إلى الماضي البعيد، ليبدأ من جديد قراءة أعمال، لا أنكر أنها خالدة، لكن لا يمكن قراءتها بجدية في هذا العصر، خاصة أن هناك كتابات معاصرة كثيرة، نزحت إلى التاريخ، أي إلى عصور كتابة تلك الروايات، وأتت بأعمال متخمة بحيل الكتابة المتطورة، هناك أعمال سينمائية أيضا كتبت في هذا الزمان، واستوحت من الفترات القديمة، وأخيرا في رأيي، إن معظم ما كتبه الروائيون المعاصرون مثل جابرييل ماركيز، وميجل أستورياس، وغونتر غراس، يفوق تلك الاختيارات عظمة.

إن كانت من عظمة حقيقية لروايات القرون الماضية، فهي كشفها عن محاولات الإنسان ليغدوا مبدعا، وخلاقا، وعن تزويدنا بتصوير حقيقي للبيئة والمجتمع، وعادات الناس، وحياتهم في ذلك الزمان، بطريقة بعيدة عن التاريخ الرسمي، أي بقلم إبداعي صرف، وشخصيات ربما تكون حقيقية، وربما تكون مخترعة، أما لو تحدثنا عن الفن والجماليات، فلن

نجد شيئا كثيرا. ويبدو لي الأمر كله، لا ضرورة له، أي لا ضرورة إطلاقا لاختيار هذه الرواية أو تلك، ووصفها بالعظمة، ونسيان تلك باعتبارها غير عظيمة على الإطلاق. الأمر يشبه آليات منح الجوائز في زمننا هذا، فكثيرا ما نجد أعمالا لا ترقى للمستوى، منحت جوائز، وأعمالا غاية في الكمال من ناحية الفن والجماليات ورؤية الكاتب، طردت من تلك الجوائز، وقد كتبت كثيرا عن هذا الموضوع، وأحلته لأسباب كثيرة، منها التذوق الراكد لمعظم محكمي الجوائز، عند خبرة قراءة مستقرة، لا تريد أن تتجاوزها أبدا، ومنها المجاملات الكثيرة التي لا علاقة لها بالإبداع. وبالرغم من أن تذوق العمل الفني والأدبي، أو عدم تذوقه، حق مشروع لكل قاري، إلا أن تدخله في الاختيارات التي ستعلن للناس، أمر لا مبرر له على الإطلاق. هنا يجب أن تكون النظرة إلى الإبداع، صارمة، واحترام العمل الجيد له أولويته، مثلما لا نحب فنانا أو سياسيا معينا، لكننا نحترمه لإجادته.

أنا كقارئ، يمكنني أيضا أن أضع قائمتي الخاصة، وأجد من يشاركني فرحتي بها، ومن لا يشاركني، ويقترح قائمة أخرى، يمكنني أن أختار مئة رواية عربية أو عالمية، وأقتنع بهذا الاختيار، ولكني أظل محتفظا بذلك في حدود ضيقة، سأقول بأنه اختياري الشخصي، ولن أعممه باعتباره قرارا يجب اتباعه من الجميع.

أخيرا، وهذا رأي شخصي أيضا، أتمنى أن تختفي مثل تلك القوائم التي لا تقدم للإبداع شيئا كثيرا، ولن تكون أبدا نزيهة أو حيادية، ذلك

ببساطة، أنها بنيت على تذوق خاص، وإحساس بأعمال معينة، على حساب أعمال أخرى، والذي يهم في النهاية، هو أن يكتب الناس، ويقرأهم القراء بلا علامات مضللة.

ظواهر الكتابة

منذ سنوات ليست بعيدة جدا، ظهر في أوساط الكتابة، فجأة البرازيلي باولو كويلو بروايته الصغيرة الخيميائي، التي تتحدث عن راع للأغنام، يقرأ الكتب، ويطوف الدنيا، باحثا عن الحقيقة. رواية بسيطة، وتبدو ساذجة في كثير من النواحي، وتخاطب في رأيي فئة عمرية معينة، لكن تلك الرواية ما لبثت أن انتشرت بطريقة لا يمكن تصديقها، لتوزع بملايين النسخ وبجميع لغات العالم، ويصبح كويلو الهاوي الذي ألقى بحجره متأخرا في ماء الكتابة، واحدا من أشهر كتاب الروايات على مر العصور، وله عشاق لا يمكن حصرهم في أي بقعة من بقاع العالم العريض. تفرغ بعد ذلك تماما للكتابة، وعد إنتاجه اللاحق، مواصلة لرائعته الخيميائي، كما توصف دائما عند ذكرها.

ومنذ أقل من عشر سنوات، ظهر الإسباني كارلوس رويس زافون، برواية اسمها ظل الريح، تروى على لسان طفل يتيم، في برشلونة، وسرعان ما تحولت تلك الرواية إلى أسطورة، وأيضا نقلتها جميع اللغات تقريبا، ودخلت في لائحة الكتب الأوسع انتشارا في العالم، ووصفت بالرواية الساحرة، وأنها احتشدت بالجمال، واختراعات اللغة، ثم ليتبعها زافون بروايتين أخريين، دخلتا أيضا في الذهنية القرائية، للملايين، وقد شاهدت زافون مرة يوقع النسخة الإنجليزية لظل الريح في ميدان عام بلندن، ومن حوله طوابير لا تنتهي من القراء، كل يحمل نسخته وينتظر دوره بصبر، للحصول على التوقيع المميز.

وفي منتصف الألفية الجديدة، نشر الطبيب الأفغاني خالد حسيني، روايته عداء الطائرة الورقية، وهي سيرة حياة له ولبلده أفغانستان الذي تقهقر حضاريا تحت ظل حكم الطالبان، وتحول إلى بلد مشرد، وطارد لأبنائه، لقد كتب حسيني تلك الرواية عقب اجتياح أمريكا لأفغانستان، وقضائها على حركة طالبان، ولعل المناخ الذي كان سائدا بخصوص الإرهاب ومحاربته، ما جعل عداء الطائرة الورقية، رواية واسعة الانتشار بشكل غريب، ولتنتج بعد ذلك شريطا سينمائيا، نجح أيضا في حلب مشاعر المشاهدين.

وفي عالمنا العربي نجد الجزائرية أحلام مستغانمي، التي ظهرت لأول مرة بروايتها ذاكرة الجسد، في ثمانينيات القرن الماضي، تكسر سوء الظن الذي لحق بسمعة القراءة العربية، بجدارة، وتخترع قارئها المتيم الذي

سيلاحقها بعد ذلك في كل أعمالها التي تلت، مثل فوضى الحواس، وعابر سرير، ونسيان. كوم، وروايتها الأخيرة الصادرة منذ عدة أشهر فقط: الأسود يليق بك. لقد نشرت أحلام هذه الرواية في دار نشر عادية لا تحظى بشهرة كبيرة، ومع ذلك كان انتشارها في الوطن العربي، انتشارا واسعا جدا، وبالمرور على موقع (جود ريدز) الذي يقيم فيه القراء الكتب، ويعلقون عليها سلبا أو إيجابا، كل حسب رؤيته، تجد أكثر من سبعة آلاف قارئ، عبروا برواية الأسود يليق بك، وقيموها أو أدلوا برأيهم فيها، بينما كتب لجميع الكتاب المرموقين وغير المرموقين، صدرت قبلها أو بعدها، عبر بها في أفضل الأحوال أربعين أو خمسين قارئ فقط.

منذ صدور الأسود يليق بك، وهي رواية حب وهجر وبذخ، كما هي عادة روايات أحلام، تصدى عدد كبير من القراء والكتاب، لمنازلتها، وصفت بأنها خواطر تخص المراهقين وليست رواية، ووصفت بأنها تكرار لتجربة أحلام، في اللعب على وتر اللغة المزركشة، ولا جديد فيها، وهناك من تصيد أخطاء لغوية، وفصلها في مقال، وهكذا، لكن ذلك لن يخدش سطرا من الرواية، ولن يزحزح القراء المتيمين شبرا عن قراءة كاتبتهم المفضلة، وقريبا جدا، ستعبر الأسود يليق بك، إلى اللغات الأخرى، كما عبرت غيرها من روايات الكاتبة، وأيضا هناك قراء في الغرب ينتظرون بوله.

الذي أردت قوله من ذلك، أنه وسط الماراثون العادي للكتابة الروائية في العالم كله، بما فيه عالمنا العربي، هناك ظواهر لا يمكن إنكارها ولا يمكن

غض الطرف عنها، وأيضا لا يمكن التقليل من شأنها بأي نقد جارح أو ناعم، هناك كتاب ربما لم يتعمدوا أن يصبحوا ظواهر أو أساطير، حين كتبوا أعمالهم، وتأتي ظروف أخرى لترفعهم فوق مستوى العادية، وتجعل أعمالهم مقدسة، يهاجم من يسيء إليها، وفي نفس الوقت كلما كثر الحديث عن تلك الأعمال، نبت قارئ جديد لها. القراء بطبعهم يتملكهم الفضول، وكل يحاول أن يقرأ ما قرأ عنه بكثافة، سوى مدحا أو ذما، وحين يطلق لقب فخم على كاتب، وتوصف رواية له بأنها ساحرة وعظيمة، سيسعى عدد غير قليل من المهتمين وغير المهتمين بالقراءة، للركض خلفها حتى يرون تلك العظمة بأنفسهم، أيضا إن وصف عمل ما بأنه سيء وسطحي، سينبت قارئ آخر ليرى بنفسه ذلك السوء وتلك السطحية.

هذا الكلام بالطبع لا ينطبق حرفيا على أي كاتب ولا أي كتاب، ولكن أولئك الذين وصفته بالظواهر، مالذي يضطر شخصا على حمل كتاب والوقوف لساعات طويلة في جو صيفي حار، من أجل أن يحصل على توقيع زافون، مالذي يضطره للتكدس مع المتكدسين، في معرض بيروت أو الشارقة، ليحظى بتوقيع مستغانمي؟، إن لم يكن زافون ظاهرة تستحق الوقوف طويلا من أجلها، وأحلام ظاهرة عربية، تستحق التكدس أيضا من أجلها. ووسط هذا وذاك، ربما تضيع أعمال عظيمة، لا يقرأها ألا القليلون.

المسألة هنا ليست جودة الكتابة من عدمها، وفي إسبانيا كتاب أكثر

تمكنا من زافون، وفي أفغنستان والهند وباكستان كتاب أروع كثيرا من خالد حسيني، وكاملا شمسي صاحبة الظلال المحترقة، وهي ظاهرة أيضا، ولكن هو الهوس بغير الطبيعي دائما.

أخيرا على الكتاب الذين ينظرون إلى تلك الظواهر بطرف أعينهم، أو يحاولون التقليل من شأنها، وفيهم كتاب مجيدون وبارعون، أن لا ينظروا إلى الأمر بمنظار التفوق الذي يظنونه في كتابتهم، وأنها أجود ومن حقها أن تحظى بمكانة أرفع لدى القراء، ولكن عليهم أن يعملوا بطريقة أو بأخرى لاختراع قراءهم. هناك عشرات الطرق لفعل ذلك، ولكن في النهاية لا شيء مضمون أبدا، هناك من يصبح أسطورة، وهناك من يظل على حاله، مهما فعل.

خامات الكتابة

الناشر

وأنا أتجول في معرض الشارقة للكتاب، في إحدى دوراته، دائر الرأس من شدة زحام الكتب والناس، توقفت عند جناح صغير، فرش على طاولته عدد محدود من الكتب، ويجلس بالداخل خلف الطاولة، رجل نحيل، ذو لحية مصبوغة جيدا، يرتدي البدلة ورباط العنق، ويمد يده من حين لآخر، إلى الطاولة، يعدل من وضع كتاب، أو يحركه من مكانه ويعيده بلا معنى.. كان جليا إنه من السودان، وقد كان بالفعل. لمحني الرجل فنهض من مكانه، أقبل إلي مبتسما، وصافحني بحرارة غريبة، وجرني من يدي إلى الداخل، أقسم علي أن أجلس، وقدم لي كوب شاي بطعم النعناع، وطبقا عليه تمر فاخر. ظننت أنه يعرفني، لكن حديثه بعد ذلك كان بعيدا عني تماما. قال إنه من عشاق الرواية ومن المتخصصين

في قراءتها ونشرها وتسويقها، ويعرف كتاب الرواية كلهم، ابتداء من عبد الرحمن منيف، حتى عبد الرحيم جلمبو الذي نشر رواية واحدة اسمها (آهتان قبل الموت)، كتبها على آلة كاتبة، قبل أن ينتحر. أضاف بأنه حين رآني عرف في قارئ روايات كبير، هو أيضا يعرف قراء الرواية من وجوههم، ويكاد يوقن أنني سأشتري كل رواياته المعروضة بلا تردد.

معرفته للروائيين التي ذكرها، أوقدت في شيئا من الخبث.. سألته فجأة:

هل تعرف أمير تاج السر.

رد بلا تردد: كيف لا أعرفه، إنه من أعز أصدقائي.

سألت مرة أخرى:

لماذا لا تنشر له إذن؟.

رد بنفس الحماس: من قال ذلك، لديه كتاب سيصدر عندي قريبا.

نهضت واقفا، اشتريت منه عدة كتب لروائيين، لم أسمع بهم من قبل، ومضيت وصوت الرجل يأتيني: سأحجز لك نسختك من كتاب أمير الذي سيصدر عندي... تابع إصداراتنا.

حظر التجول

كان ذلك في بداية التسعينيات، كان ثمة حظر للتجول يبدأ في العاشرة مساء، وكان هاشم يقود دراجته النارية من ماركة فيسبا العتيقة، عائدا إلى بيت أهله في أحد الأحياء الطرفية لمدينة بورتسودان، كان يضع سماعات على أذنيه ويستمع لأغنية ضاجة من مسجل صغير موضوع في جيب قميصه. أشار له الجندي بالتوقف أمام نقطة تفتيش مر بها، فلم ينتبه، كان ذلك في التاسعة وخمسين دقيقة، وفي لحظة كانت ثمة رصاصة قاسية تصيب أسفل وركه، في منطقة غنية بالشرايين. في غرفة العمليات حاولنا ترتيق تلك الشرايين النازفة، وإنقاذ الساق، لكن ذلك لم يجد، في اليوم الثالث، خضع لعملية كبرى، بترت فيها ساقه أعلى الركبة. وفي اليوم الرابع مات من الغرغرينا. كان في الثانية والعشرين، وكان نجارا يعول أسرة.

في سرادق العزاء، حين ذهبت، انتبهت إلى رجل معمم، يتلقى العزاء مع الأسرة، ويقف كلما دخل غريب، يصيح على الصبية الذين يحملون أقداح الشاي، أن يعطوا شخصا لم ينتبهوا إليه، لم يكن من الذين شاهدتهم أثناء تفاوضنا مع الأسرة، بشأن بتر الساق. سألت رجلا يجلس بجانبي عن ذلك الحزين، النشط في حزنه، فرد علي بلا تردد: إنه العسكري الذي أطلق النار على هاشم.

الخياط

كان الصديق في ذلك الوقت، في الأربعين تقريبا، نحيلا وأسمر البشرة، يرتدي بنطلونا أزرق وقميصا أبيض باستمرار، يضع منديلا أحمر حول عنقه، وعلى عينيه نظارة طبية سميكة من ذلك النوع الذي يطلق عليه (قعر الكوب)، كان خياطا، يجلس على ماكينته من طلوع الشمس إلى غروبها، يأتيه طبق الفول بالجبنة، يلتهمه وهو منهمك، يأتيه كوب الشاي الأحمر الداكن، يتجرعه وهو منهمك، يحاوره الناس في السياسة والكرة، وأفلام راجي كابور، فيحاورهم وهو منهمك، وحين يفرغ من عمله، تكون عشرات البناطيل والقمصان والبدل، معلقة على شماعات خلفه، في انتظار أصحابها. إنها الملابس التي استلم خاماتها في نفس الصباح، فصلها وخاطها، ثم التفت إلى جيرانه من الخياطين الآخرين يسألهم إن

كانوا يرغبون في أن يمد لهم يد المساعدة، قبل أن ينصرف إلى بيته.

في أحد الأيام استلم قماشا من أحد أبناء الجنوب المنتشرين بشدة في الشرق، لم يكن الجنوبي يعرف عنه شيئا، سلمه القماش طالبا ثوبا وسروالا، وقميصا داخليا. أخذ الصديق قياساته، أعطاه قرشا وطلب منه أن يحضر له زجاجة من مشروب مرطب، ذهب الجنوبي إلى إحدى البقالات وعاد بالمشروب، ليسلمه الصديق ملابسه كاملة. وكانت صدمة للرجل الذي رفض أن يتقبلها باعتبارها ليست ملابسه، ودارت في ذلك اليوم معركة كبيرة دامت نصف ساعة، وعطلت الصديق عن إنجاز بدلة كاملة لأحد العرسان. استلمها منه واعدا بإنجازها حالما بفرغ الرجل من شرب شايه في أحد المقاهي القريبة.

أبا تسفاي

كانت أبا تسفاي، لاجئة من دولة إريتريا، زهرة ندية، غرستها ظروف اللجوء والتشرد في موقف لباصات السفر، كانت توقد الفحم، وتصنع الشاي، وتبتسم بالأسنان ذاتها للمسافرين والعابرين والباعة، وفي أخر الليل حين تخف وطأة السفر، وتختفي أحذية العبور المتصعلك قرب نكهتها، تلم مواقدها وخامات شايها وتذهب لتحلم في جحر بعيد في أحد الأحياء الفقيرة. ولأن الزهرة ندية والعطر فواح، والعابرون بالنكهة أغلبهم فقراء وهائمون، سقط الكثيرون في عشقها، وانبرى الكثيرون خطابا لجمالها، لا يملكون سوى نبض القلوب وغيرات كبيرة يتعاركون بها للفوز بذلك القلب ذي النكهة، وكان أن جاء أحدهم بمدية مسننة غرسها في قلب تلك الزهرة ذاهبا برحيقها إلى الأبد. ذلك الوقت كنت أعمل

بقسم الجراحة في مستشفى بورسودان، جاءوا بأبيا في أحد الصباحات، جسدا أبيض بلا دم، ورئتين خامدتين بلا أوكسجين، وزهرة ذابلة بلا عطر، أسرعت بخبرتي لإنقاذها، لكن بلا فائدة، كانت قد رحلت عن عالم الشاي والنكهة والغيرات المدببة في عشقها.

لقد ظللت سنوات بعد ذلك، أستعيد حياة أبيا وموتها، أود كتابتها كوجه مطلسم، وامرأة ذات بعد وإشراق لم تحلق في النضارة سوى أعوام قلائل، وفي ذات مساء جلست لأكتب، وكانت رواية لي اسمها (عواء المهاجر)، لا أحد يعرفها لأنها لم تنشر جيدا، رواية صغيرة ومكثفة ملأتها بدماء أبيا التي سالت في زاوية فقيرة في موقف للباصات، وجعلت قاتلها أحد المتشردين، إنه عبد الكريم مشاكل، واحد من الذين استكشفت أحشاءهم ذات يوم، في عملية طويلة ومعقدة، جعلته الرجل صاحب الغيرة الأكثر حدة، الغيرة التي تحمل السكين لتنحر من انطلقت من أجله.

أم جمعة هي بالضبط أبيا تسفاي.. واحدة برحيق مختلف، مغروس في شارع يعبر به الآلاف في كل يوم.. بعضهم يتذوق الشاي ويمضي في سبيله، بعضهم يتلكأ قليلا، بعضهم يعشق وبعضهم يشهر غيرته المسننة.. ليخرج في النهاية قاتل يختبئ في ثياب طالب للقرب.

أتصور المعاناة التي كانت تعانيها البائعة المثقفة، أتصور ابتسامتها التي كانت تستهلكها في دروب الرزق، وبيتها البعيد الذي لن يكون أبدا سوى كوخ قاحل مترع بالفقر وربما كان بلا ماء أو ضوء.

مثل هذه الشخصيات تأسرني.. أحسها تسري في نصوص مخبأة في

داخلي وحين أكتبها، أسمعها تقول داخل النص ما لم تقله في حياتها القصيرة المجهضة. للأسف لن أستطيع أن أكتب أم جمعة، فقد كتبتها منذ سنوات، حين جلست ذات مساء إلى طاولتي لأكتب اللاجئة أببا تسقاي.

إمام المغني

كان إمام مغنيا يملك صوتا ممتلئا بعناصر الطرب كلها، وكان يعمل نجارا في ورشة صغيرة، يملكها في أحد الأحياء البعيدة. كان يدق مسمارا أو مسمارين في الصباح على طاولة أو كرسي، أو خزانة، وينفق باقي اليوم في تلحين القصائد التي تناثرت داخل الورشة. وكان مألوفا جدا أن ترى عددا من زبائنه، يسألون بغضب عن أغراضهم التي مضى عليها زمن طويل وما زالت مجرد خشب. في أحد الأيام زرته في ورشته، أعطيته قصيدة كتبتها لفتاة جميلة وأرادت أن تسمعها مغناة، فطلب مني أن أحضر شايا من مقهى قريب وأعود، وحين عدت بعد عدة دقائق، كان يسمعني قصيدتي ملحنة بصورة لم أصدقها، وفي يوم آخر زودته بخامات الخشب، وطلبت منه طاولة جديدة لعيادتي التي سأفتتحها قريبا، فلم أستلم تلك الطاولة قط.

عبود

كان عبود اللص، ميتا في ذلك اليوم، لا محالة، فقد تسلق حائط أحد البيوت، في حي راق، ليسرق، وأحس به سكان البيت الذين كانوا ينامون في الحوش. طاردوه بالعصي والسكاكين، وأمسكوا به، وضربوه بعنف على جسده ورأسه، حتى اصيب بإغماء، ونقلته الشرطة إلى المستشفى في منتصف الليل، وكنت مناوبا. لقد شخصته ارتجاجا في المخ، قمت بخياطة جروحه، وتصوير رأسه بأشعة اكس، وكان قد استيقظ، من إغمائه وبدا مشوشا قليلا، وقمت بإدخاله المستشفى للمراقبة كما نفعل عادة. حيث يمكن أن تتطور حالته في أي وقت. وهو في الطريق إلى العنبر الداخلي، غافل حارسه والممرضين اللذين يحملانه على المحفة، قفز وانطلق يركض، لكن طاردته رصاصة من الحارس، أسقطته ميتا أمام أعيننا.

الفاضل

كان الفاضل مطربا شعبيا، وكان طويلا وعريضا وأقرب للمصارعين منه إلى موقدي جمر العواطف. في أحد المساءات كان يغني في حفل عام، وأمامه صف من الفتيات الجميلات، يتأملهن بشغف، ويزداد رعونة في الغناء، كلما ارتشف ابتسامة، أو التقط تلويحة من يد ناعمة. كان الراقصون يصعدون إلى المسرح، يتمايلون قليلا أمامه ويهبطون، يصعد غيرهم، يتمايلون أيضا ويهبطون، وصعد رجل يرقص بهستيريا، التصق بالمسرح لأكثر من ربع ساعة، لدرجة أنه شتت مقاطع الأغنية، وحجب عن المغني طوفان الجمال أمامه. فجأة أمسكه الفاضل من رقبته، رقصه قليلا في الهواء وما زال يغني، ثم مضى به إلى خلف المسرح، ألقاه في الكواليس وعاد. كان المايكرفون في يده ما يزال، والأغنية لم تنقطع أبدا.

طبيب العنبر

كان الدكتور ملوال، زميلا لنا، يعمل في قسم الأمراض الباطنية. في أحد النهارات، قصد بيتا للخمور البلدية، في أحد الأحياء الطرفية من المدينة، وخرج في أول المساء يترنح. عثر عليه سائق عربة أجرة ملقى على الأرض، سابحا في القيء والعرق، أحضره للمستشفى وهناك فحصه الطبيب المناوب، وأدخله العنبر للملاحظة، بعد أن كتب على أوراقه: مجهول، و لم يخطر على باله أبدا أنه الدكتور ملوال. في العنبر تلقاه ممرض الليل المتثائب، أرقده في أحد الأسرة القذرة، وعلق على يده محلولا وريديا. وعاد إلى كرسيه يتثاءب، وأيضا لم يفكر لحظة أنه طبيب العنبر. في الفجر استيقظ الدكتور ملوال، تأمل بعينيه المكان وعرف على الفور، أنه يرقد في العنبر الذي يشرف عليه شخصيا. غافل ممرض الليل، وانطلق إلى سكن

الأطباء القريب، اغتسل وأفطر، وغير ملابسه، وعاد بعد ساعتين إلى نفس العنبر، يعلق سماعته الطبية على رقبته، ويطوف على المرضى الذين زاملهم في الليل، غائب الشعور.

قدم مكسورة تمشي

كان ميرزا، رجلا آسيويا غزير الأعوام. كان يتردد على العيادة يوميا، يرتدي ثوبا أزرق داكنا، وغترة من قماش أحمر، اخترعها بنفسه، وصندلا من جلد قديم ممزق، ويحمل في يديه مسجلا معطوبا، وحقيبة بنية، يحرص عليها بشدة ولا يفلتها من يديه أبدا. كانت شكواه واحدة، لا تتغير: قدمي مكسورة ولا أستطيع المشي.

في البداية كنا نأخذ بجدية، نصور ساقه بأشعة اكس، ونردمه بالتحاليل، ولا نعثر على شيء، ثم اعتدتنا على تلك الشكوى، واكتشفت لدهشتي الشديدة بعد ذلك، إن الرجل يمشي عشرات الكيلومترات في اليوم، بساقه تلك، يمشي في الأسواق والطرق الجانبية والـ(هاي ويز)، ولم يركب عربة في حياته، وإن توقف له أحد لا يعرفه في الطريق، بنية مساعدته، كان

يغضب بشدة، وربما اشتبك مع الرجل في معركة. كان فضولي الآن قد تركز على تلك الحقيبة الغالية، الحقيبة التي يعض عليها الآسيوي ولا يفلتها من يديه، ظللت عشرة أعوام أتتبع تلك الحقيبة، أتمنى أن أرى ما بداخلها، وحاولت في أحد الأيام أن آشدها من يده وأفتحها، لكنه تشنج بشدة، وأخفقت. منذ عدة أيام جاء ميرزا. كان قد يبس، ولا بد تجاوز التسعين، وقد سقط قفل الحقيبة المسن أيضا، واستطعت أن أرى محتوياتها أخيرا: كانت الحقيبة فارغة.

الكاتب

منذ أكثر من سبع سنوات، سلمني آدم مخطوطا لرواية كتبها، وكانت روايته الأولى كما قال. كان في نحو الأربعين، نحيلا وقلقا، لا تستقر عيناه على شيء. طلب مني قراءتها وإبداء رأيي، وظل يطاردني شهرين بالهاتف، ولا أجد وقتا لقراءة الرواية. في أحد الأيام جاء إلى مكتبي، كان متهيجا، وقد نبتت له لحية بيضاء، وقال لي بالحرف الواحد، وهو يلوح بيديه، إنه سيضطر لإيذائي، إن لم أقرأ الرواية. فكرت ساعتها بالإبلاغ عنه، ثم غيرت رأيي، تفرغت يومين وأمسكت بالرواية، لأفاجأ برواية بديعة، كتبت بإخلاص مجنون، رواية كتبها عن بلاده الصومال، عن عريها وتفككها، وجوعها وفقرها، وتلك الحرب المزرية، التي لم تترك حتى حشرات الليل الطنانة، كتبت له صفحتين وأنا منتش، وجاء ليأخذهما، ويسترد مخطوطه.

منذ ذلك الحين، لم أر آدم مرة أخرى، و لم أسمع أبدا بتلك الرواية الفريدة.

الشاعر موسى

كان موسى يعمل معلما، وكان وسيما، وشاعرا رقيقا تخصص في أغنيات الحب والجمال، واشتركنا معا عدة مرات في كتابة القصائد.

في أحد الأيام، و لم أكن قد التقيته منذ فترة، جاء إلى المستشفى يبحث عني.

كان منظره مؤلما، يرتدي قميصا أبيض متسخا، وسروالا ممزقا من القطيفة السوداء، يلف حول ياقة قميصه حبلا سميكا، بوصفه ربطة عنق، وعلى قدميه صندلا بيتيا منهكا، ويحمل قطعة مربعة من الكرتون، مكتوب عليها بحبر أحمر:

تشهد كلية التفاهة، في جامعة الحياة التعسة، أن الأستاذ موسى، قد تخرج فيها بمرتبة الشرف، وأصبح أكبر تافه في العالم.

دكتور أمير تاج السر

عميد الكلية.

وضع قطعة الكرتون أمامي، وصرخ في وجهي، وهو يرتجف: وقع يا سيادة العميد حتى أضعها في برواز وأعلقها على الحائط.

وقعت له وأنا مصدوم، وظللت مصدوما، حتى بعد أن مات بعد ثلاثة أشهر منذ ذلك.

الهندي

منذ أن قرأ سليم الآسيوي، روايتي مهر الصياح مترجمة للإنجليزية، وأنا في محنة، فقد درسها جيدا، عرف مناخاتها وشخصياتها، وكل ما يمت إليها بصلة، و لم أشاهده بعد ذلك قط، إلا ويحملها في يده، أو تحت إبطيه.

في أحد الأيام، جاء يسحب رجلا مسنا في نحو الثمانين، قال إنه غاسل أموات سابق، ونريدك أن تكرمه بأن تستوحى حياته، وتكتبها في رواية شبيهة بمهر الصياح. في مرة أخرى جاء بصحبة شاب لين، تقلب عدة مرات في مكتبي، ومشى على يديه، قال إنه لاعب سيرك معتزل، ونريدك أن تكتبه في رواية تشبه مهر الصياح، ويمكنك أن تجعله خصيا مثل نجام فلن يغضب، وردد الشاب بلغة عربية واهنة: نعم خصيا مثل

نجام ولن أغضب. منذ يومين جاء بصحبة امرأة شابة مزركشة بالعقود والأساور، وتحمل حقيبة من الجلد الاصطناعي، قال إنها تبيان بيبي، وقد كانت أمنيتها أن تصبح ملكة، أجعلها ملكة في رواية شبيهة.بمهر الصياح، أعتقد بأنها تشبه السلطانة مسك النساء.

مؤخرا هاتفني بأن لديه شخصية شبيهة بالرزينة نظر، سيحضرها قريبا.

النجم

كان ذلك في عام 2008، خرجت من بوابة مطار القاهرة، وذهني خال من أي شيء. منذ مدة لم أزر القاهرة، تلك المدينة المتنوعة التي بدأت منها الكتابة، ولي فيها حصيلة وافرة من الذكريات والصداقات، وروائح الدروب التي عبرتها فيها.. طرق تؤدي إلى الصحف والمجلات، أخرى تؤدي إلى حيث تتبعثر الثقافة في المقاهي. انتبهت إلى شاب يتبسم في وجهي، ثم يقترب مني ويمسك بيدي: هل أنت الدكتور؟، أنا من طرف صديقك الذي أخبرني بقدومك، أترك حقائبك لي.. وقد تركتها، فقد كنت بالفعل صديقا لعمه الذي أوصاه بانتظاري. وصلنا إلى عربة قديمة من طراز المرسيدس تقف في الانتظار، بداخلها سائق يدخن سجائر (الكليوباترا) في صمت، بينما الشاب الذي استقبلني منهمك في حديث

مجلجل: أنت لم تعرفني، أنا المطرب الشهير الذي باع ألبومه الغنائي الأخير مئة ألف نسخة في يومين، أنا صاحب أعلى المبيعات.. ثم يمد يده إلى ورق مطوي داخل السيارة، يفرده: أنظر.. وكان بوسترا بحجم نافذة يمثله مسبسب الشعر، ومفتعلا نصف ابتسامة، ثم بخط كبير كتب اسم ألبومه الغنائي.

كانت العربة تسير ببطء شاقة زحاما مكثفا في واحدة من أكثر مدن العالم اكتظاظا بالبشر، من مدينة نصر إلى ميدان رمسيس، إلى التحرير، والمطرب منهمك في سرد لا ينطفئ أبدا: أسمع هذا المايكروباص الذي يمر.. . اسمع صوتي بداخله. ثم يصرخ في سائق الحافلة: شكرا يا بيبو.. ولم يكن في الحقيقة أي صوت ينبعث من الحافلة. يوسع ابتساماته ونحن في شارع ضيق: انظر لهؤلاء الفتيات.. ألا ترى إنهن سيمتن من الدهشة حين لمحنني في السيارة؟ لن أجاملهن. ويدير رأسه للاتجاه الآخر، وحين انظر أنا، أرى فتيات عاديات يسرن في الطريق من دون دهشة أو ابتسامة أو أي شبهة أنهن وقعن في غرام أحد.

وصلنا إلى الفندق بعد ساعات من العذاب، عذاب الدوران والأسئلة، حيث كان السائق ريفيا لا دراية له بحيل المدن، وعذاب ثرثرة لمطرب لم تتضح لي حتى الآن ملامحه الإبداعية، أو صيته الجماهيري كصاحب لأكثر أشرطة الكاسيت مبيعا كما يقول. أستنجد بقريبه السائق.. أسأله، لكنه يدخن سجائر الكليوباترا في صمت، ولا يبدي رغبة في إطفاء فضول أو ثرثرة.. أطالع البوستر الضخم للمطرب، أحاول العثور على شبيه له في

الشوارع الغاصة بصور المغنين والممثلين ولا أعثر على شيء. كان الفندق مزدحما، وفي دقائق لمحت بوسترات المطرب تتراكض بين الأيدي، أو مكسرة وملقاة على الأرض: أنظر حتى الأجنبيات تعرفن علي، وحين أنظر، لا أجد أجنبية واحدة تبدو قد دخلت عالم ذلك المطرب.

أخيرا تخلصت من رفقاء الطريق وصعدت إلى غرفتي لأنام. وفي الصباح طويت بوستر المطرب وحملته معي، ذهبت أبحث عن مكان لبيع أشرطة الكاسيت، وحين عثرت على واحد، سألت البائع عن ألبوم المطرب الأكثر مبيعا، رد علي في دهشة، ليس هناك ألبوم أو مطرب بهذا الاسم، فردت البوستر وأريته له، فلم تتغير ملامحه ولا رده.. لا يوجد مطرب بهذه الصورة.

ضغط الكتابة وسكرها

كتابات في الثقافة والحياة

كان إمام مغنيا يملك صوتا ممتلئا بعناصر الطرب كلها، وكان يعمل نجارا في ورشة صغيرة، يملكها في أحد الأحياء البعيدة. كان يدق مسمارا أو مسمارين في الصباح على طاولة أو كرسي، أو خزانة، وينفق باقي اليوم في تلحين القصائد التي تناثرت داخل الورشة. وكان مألوفا جدا أن ترى عددا من زبائنه، يسألون بغضب عن أغراضهم التي مضى عليها زمن طويل وما زالت مجرد خشب. في أحد الأيام زرته في ورشته، أعطيته قصيدة كتبتُها لفتاة جميلة وأرادت أن تسمعها مغناة، فطلب مني أن أحضر شايا من مقهى قريب وأعود، وحين عدت بعد عدة دقائق، كان يسمعني قصيدتي ملحنة بصورة لم أصدقها، وفي يوم آخر زودته بخامات الخشب، وطلبت منه طاولة جديدة لعيادتي التي سأفتتحها قريبا، فلم أستلم تلك الطاولة قط.

الغلاف: بسمة صلاح



